د. خليفة الفضلي

سيكلوجية الجماهير

ما بعد لوبون

تحديث مستحق في علم نفس الحشود

سيكلوجية الجماهير
ما بعد لوبون
تحديثٌ مستحقٌّ في علم نفس الحشود

تأليف

د. خليفة الفضلي

شركة رف للنشر

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

سيكلوجية الجماهير ما بعد لوبون

تحديثٌ مستحقٌّ في علم نفس الحشود

تأليف: د. خليفة الفضلي

ردمك: 978-603-92018-7-8

رقم الإيداع: 9668/1444

لا يسمح بإعادة طبع أو نسخ أو نقل هذا الكتاب أو أي جزء منه

بأي وسيلة سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية أم غيرها.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر عن رأي شركة رف للنشر.

الطبعة الأولى 2023

المجموعة السعودية للأبحاث والإعلام

11583- الرياض، المملكة العربية السعودية

تلفون: 966112128000+

email: contact@raffpublishing.com

website: www.raffpublishing.com

srmg
Saudi Research & Media Group

إهداء

لمن لا يزالون في بداية الطريق

لم أصل للوضوح الذي كنت آمل

لكني اليوم أكثر قدرةً على تحمّل الغموض

شكر

شكراً لزوجتي د.آلاء على إيمانك بي عندما فقدتُ الثقة بنفسي

شكراً لعائلتي، مَن قضيت أوقاتا طويلة بعيداً عنكم

شكراً للبروفيسور جون دروري الذي تعلّمت منه الكثير

شكراً د. هاني النابلسي على كرمك بخبرتك ولطفك الجمّ

شكراً د. عبدالله الرويتع على إرشادك وصداقتك

شكراً إبراهيم آل سنان على دعمك ليخرج هذا الكتاب

شكراً لأصدقائي، كنزي الأثمن

مقدّمةٌ

ستجد في هذا الكتاب تحديثاتٍ مهمّةً في فهم ظاهرة الحشود، وتصحيحاً لبعض الأفكار التي جاءت في كتاب لوبون، لكن أتمنى لك فائدةً أكبر بتغيير نظرتك لكثيرٍ من المواقف من حولك عبر عدسةٍ جديدةٍ تنظر بها بتفهّمٍ أكبر لسلوك الآخرين، كما حصل معي شخصياً أثناء رحلتي في التعلّم. في أوّل وصولٍ إلى بريطانيا، كُنت في حافلةٍ متجهةٍ من مطار هيثرو إلى مدينة برايتون، توقّف الباص في منتصف الليل ومنتصف المسافة عند محطةٍ لينزل منه السائق مُبلّغاً الركاب أنه لن يستطيع إكمال الرحلة؛ كون ساعات عمله انتهت، وأرشدنا للتوجه نحو مكتب الإدارة. ذهبنا متذمرين إلى المكتب حيث عرضوا علينا إعادة ثمن التذكرة وإيجاد وسيلةٍ أخرى لتكملة الطريق بالقطار أو سيارات الأجرة، ولكن الركاب رفضوا العرض وطالبوا الإدارة بإيجاد حلٍّ يضمن إكمال الرحلة، وتمّ لهم ما أرادوا، حيث أقنعت الإدارة السائق بإكمال الرحلة. ما أثار انتباهي هو أن الركاب الذين عادوا للباص لم يكونوا نفس الركاب الذين نزلوا منه! لا أقصد أنه جاء ركابٌ آخرون، وإنما تغيّرت طريقة تفاعلهم وحديثهم بين بعضهم البعض، حيث انتشرت الأحاديث الجانبية والضحكات، بينما غلب عليهم الصمت والانعزال في نصف الرحلة الأوّل.

موقفٌ مثل هذا لم يكن ليثير انتباهي سابقاً لولا أني كنت ذاهباً لمقابلة باحثٍ

كرّس سنوات حياته لدراسة الجانب النفسي في سلوك الجماعات والحشود، الذي أظهر أن الأفراد عندما يواجهون تحدياً مشتركاً فإنهم يدركون أنفسهم كجماعةٍ، ويتصرفون على هذا الأساس بتنسيق جهودهم ودعم بعضهم. ولاحقاً قرأت المزيد فعرفت أكثر عن التغيير الذي حدث أثناء الرحلة، كالفرق بين الحشد المكاني بين أفرادٍ لا توجد بينهم رابطةٌ (النصف الأول من الرحلة)، والحشد النفسي حين يجتمع أفرادٌ وتكون بينهم رابطةٌ واضحةٌ للجميع (النصف الثاني من الرحلة).

أهميّة كتاب لوبون

عجيبٌ أمر هذا الكتاب الصغير الحجم عظيم الشأن، الذي لا يكتفي بكونه من الكتب المفضلة في أندية القراءة ورفوف مكاتب "المثقفين"، وإنما يستمر

بالظهور بمختلف الساحات الجادّة والهزلية، فيتنقل بين كفّ مثقفٍ شهيرٍ مثل تركي الحمد[1] إلى كفّ شخصيةٍ كرتونيةٍ هزليةٍ مثل سعد غنّام (من مسلسل مسامير).

أثناء سعينا الطبيعي والعادي في حياتنا اليومية نحو فهم جوانب مهمّةٍ من "الطبيعة البشرية"، يوصي كثيرٌ من المثقفين ومشاهير وسائل التواصل الاجتماعي بالكتاب لفهم ظاهرة الجماهير وما يحرّكها، كما ينضم للتوصية به مجموعةٌ من الأكاديميين وحتى بعض المتخصصين في مجال علم النفس.

كتاب سيكلوجية الجماهير (1895م)

قدّم غوستاف لوبون (Gustave Le Bon) في كتابه هذا نظريةً لفهم سلوك الحشود في محاولةٍ لفهم محرّكات الجماعات والجماهير في عصره، والتي بدأت تكتسب أهميةً كبرى في ظلّ التحول السياسي وتشكّل الأنظمة الديموقراطية في أوروبا، وما صاحبها من ثوراتٍ متعددةٍ ومظاهراتٍ وأعمال شغب.

على الرغم من الأهمية السياسية والاجتماعية لهذا الموضوع، إلّا أن لوبون اختار وبوضوح زاويةً نفسيةً لفهم سلوك الحشود، بتركيزه على التغيّرات الجذرية في سلوك الفرد عندما ينضم إلى حشدٍ، وهي ملاحظةٌ ألمعيةٌ وواقعيةٌ بلا شكٍّ. ساهم لوبون بأول نظريةٍ لتفسير سلوك الحشود عبر وصف مجموعةٍ من مظاهر هذا السلوك، مثل اللاعقلانية، والعنف، والعشوائية، وفقدان السيطرة على النفس، كما تجاوز الوصف إلى التحليل بتقديم عدّة تفسيراتٍ وعوامل تقبع خلف تلك السلوكيات، مثل كاريزما القائد، والإيحاء، والتنويم المغناطيسي، والعقل الجمعي، وعدوى السلوك.

وبما أنّه قدم مساهمةً مبكرةً وجهوداً أوليةً من أجل فهمٍ علميٍّ للسلوك الجمعي، فإن تناوله للظاهرة اتصف بالاتساع، بحيث شمل أنواعاً متعددةً من الجماعات، مثل حشود الشغب المؤقتة الذين قد لا يعرفون بعضهم، والجماهير المتفرقة من المواطنين التي تتبع قائداً، وبعض الجماعات التي يرتبط أفرادها بعلاقاتٍ مستقرةٍ مثل الأحزاب والبرلمانات، تبدو لنا اليوم ذات صفاتٍ مختلفةٍ ولا تنطبق عليها نفس القواعد التي تحكم سلوكها. وفي هذا الكتاب أحاول التركيز تحديداً على الحشود بمعنى الجماعات المؤقتة ذات الروابط الاجتماعية الضعيفة، مثل جماهير المظاهرات والرياضة وغيرها، وهي ذات التأثير الأقوى على السلوك، ويُنسب إليها أرذل الصفات.

اهتمامٌ متجدّد

صحيحٌ أنّ دافع لوبون من دراسة ظاهرة الحشود وتأليفه الكتاب هي السلسلة الطويلة من الاضطرابات السياسية التي شهدتها أوروبا ما بعد الثورة الفرنسية، إلّا أن الكتاب يعاد بعثه بعد كلّ هزّةٍ واضطرابٍ عالميٍّ، كما حصل في الحرب العالمية الثانية، حيث وجد الكثيرون فيه ضالتهم التي تعينهم على فهم الانقلاب الجذري الذي يصيب سلوك الناس أثناء تلك الأحداث ممّا لا يخطر على بالٍ في الأيام العادية.

وإن كنّا في المنطقة العربية بعيدين عن روح ثورات أوروبا في القرن الثامن عشر، وعلى ضفاف حروبها "العالمية" في القرن العشرين، فإنّ لهيب الحروب أحرق -ولا يزال- بلاد العرب بعدما انطفأت في أوروبا الغربية، لنصحو مع بواكير القرن الحادي والعشرين على بزوغ للجماعات الإرهابية، تلتها موجةٌ ثوريةٌ عمّت كثيراً من الأقطار، وأزالت بعض أنظمتها منذ أحداث الربيع العربي 2011، ما يزيد الاهتمام بكتاب سيكلوجية الجماهير في محاولةٍ لفهم هذه الظاهرة وتأثيرها الطاغي على الفرد.

روح العصر

كل عملٍ إبداعيٍّ هو ابن عصره، فيتأثر بالأحداث الكبرى والأفكار المنتشرة في مجتمع وزمن المؤلف، يتأثر بها بأن يخرج إبداعه صدى لتلك الظروف، أو وقفة تحدٍّ لها، أو يستلهم منها خيطاً جديداً يُحاك به واقعٌ مستقبليٌّ. ينطبق ذلك بشكلٍ أكبر على الإنتاج العلمي، الذي من طبيعته التغيّر السريع مقارنةً بالأفكار الفلسفية، فنجد الناس يجاهدون لمواكبة تطورات التكنولوجيا التي تغيّر وجه حياتهم اليومية، وترمي في طريقهم المزيد من الأشياء الجديدة وطُرق استخدامها، في حين تستأثر بحوارات السمر وجلسات الصفاء أفكارٌ

فلسفيةٌ وإبداعاتٌ فنيةٌ عتيقةٌ، كالتأمل في لوحةٍ عمرها قرونٌ، أو أبياتٌ من الإلياذة، أو تساؤلٌ عميقٌ عن ماهية قيمةٍ إنسانيةٍ يعود بنا إلى محاورات سقراط!

ماذا عن موضوع هذا الكتاب؟

دراسة السلوك لا يمكن مقارنتها بصناعة الهواتف والحاسبات سريعة التطور بشكلٍ هائلٍ، ولكن فهمنا لواقع سلوك الناس في مواقفٍ محددةٍ والأسباب والعوامل المؤثرة على تلك السلوكيات أحرز تطوراً كبيراً انعكس على تحسين جوانب كثيرةٍ من حياتنا، في التعليم والتربية والصحة النفسية والقوانين. منشأ هذه القفزة العلمية في مجال السلوك والعلوم الإنسانية هو تطوّر أدوات الوصول للمعرفة (المنهج العلمي)، مثل الاعتماد أكثر على الاستقراء، بمعنى جمع أدلةٍ جزئيةٍ من الواقع ودراستها ومن ثم الاستدلال بها على مفاهيم نظريةٍ أكبر (فرضيات ونظريات)، بدلاً من الاستنباط الذي لا يتطلب أدلّةً واقعيةً، وإنما جهداً فكرياً ينتقل من مسلماتٍ كبرى ويسقطها على حالاتٍ وظواهر محددةٍ باستخدام المنطق، كما كان يفعل سقراط.

نجد في كتابات المسلمين في القرون الوسطى أمثلةً مذهلةً لاستخدام الاستقراء العلمي على يد علماء أفذاذٍ مثل ابن النفيس وجابر بن حيّان وابن الهيثم، ما يعكس روحاً علميةً جديدةً لم تقف عند الطب وعلوم المادة، وإنما تجاوزتها إلى دراسة المجتمع على يد إخوان الصفا، وابن خلدون الذي دعا إلى دراسة الظواهر الاجتماعية والعوامل المؤثرة عليها، ومن ثم استخلاص القوانين التي تحكمها. بدأ نضج المنهج العلمي في العلوم الطبيعية خلال عصر النهضة الأوروبي، ولحقت بها العلوم الإنسانية في بدايات العصر الحديث، التي ساهم تطوير أدواتها في فهم التغيّرات والمشكلات الاجتماعية الناتجة عن الثورة الصناعية.

في ذلك المهد الأوروبي الذي أرسيت فيه الدعائم المُؤَسِسة لتخصصات علم النفس والاجتماع، قدّم غوستاف لوبون في نهاية القرن التاسع عشر نظريته لفهم السلوك الجمعي، معتمداً على تلك المساهمات العلمية التي توفرت له في عصره، وحملت بصمات تلك الآراء وتأثرت بها، مثل الإيحاء والتنويم المغناطيسي والعقل الجمعي، مما تجاوزه علم النفس المعاصر الذي قدّم نظرياتٍ أفضل لفهم السلوك بعد مرور أكثر من قرنٍ نضج فيه علم النفس وانبثقت عنه آلاف المجلات والجمعيات العلمية، وأعدادٌ هائلةٌ من المتخصصين والدراسات. يضاف إلى ذلك التراكم العلمي أيضاً تقدمٌ أخلاقيٌّ وقِيَميٌّ لم يكن متاحاً في أوروبا خلال القرن التاسع عشر، التي انتشرت بها آراء اجتماعية

كانت تعد مقبولةً وطبيعيةً تم الإجماع حالياً على عدم وجود أساسٍ علميٍّ لها، مثل أفضلية بعض الأعراق البشرية على أخرى، ممّا احتوته كتب لوبون نفسه.

يجب أن لا يغيب عن القارئ دافع لوبون للخروج بنظريته التي سعت لتقديم أول تفسيرٍ علميٍّ لسلوك الحشود، استجابةً لتساؤلاتٍ ملحةٍ نحو فهم أحداثٍ مهمةٍ في المجتمع الأوروبي عموماً والفرنسي خصوصاً، بداية من الثورة الفرنسية وما تلتها من اضطراباتٍ سياسيةٍ، وتحديداً أحداث الشغب المنسوبة لجموعٍ غاضبةٍ من الجماهير، ومعلوم أن تلك الحوادث محدودةٌ ولا تمثل مُجمل الطبيعة البشرية للسلوك البشري، إضافةً إلى التحيّز المحتمل ضد الثائرين المعدمين؛ كون المؤلف ينتمي لطبقةٍ عليا، وصاحب فكرٍ محافظٍ.

هذا الكتاب

ليس معركةً مع شبح لوبون، وليس هدفه الأساس دحض نظريته -وقد حصل ذلك في الساحة الأكاديمية منذ وقت بعيد- وإنما تقديم تحديثٍ مستحقٍّ للمهتمين بالسلوك الجمعي، يقدّم بعض النظريات والدراسات الحديثة في علم نفس الحشود، إضافةً إلى بعض التوصيات العملية في نهاية الكتاب. على الرغم من كون الكتاب ليس أكاديمياً، بل هو موجهٌ لعموم القراء، إلا أني آسفاً لا أستطيع أن أعدك قارئي الكريم بمقولاتٍ بسيطةٍ تختصر لك جوانب مهمةً من الطبيعة البشرية كما جاء في كتاب لوبون، والسبب هو أني -إضافةً إلى عجزي عن مجاراة الأسلوب الأدبي الرفيع لنابغة مثله، برع في علوم شتى، وأنا مجرّد باحثٍ يأمل التمكّن بما يكفيه في نطاق تخصصه الضيق-، محكوم بكوني رجل علمٍ لا أديباً، مقيداً بأمانة تقديم الفهم الصحيح للظواهر على حساب جاذبية العبارة وجمالها. ومعلومٌ أن الفهم العلمي -مهما بذلنا الجهد في تبسيطه- يظلّ فهماً مركّباً غير بسيطٍ، يسعى إلى حصر العوامل المؤثرة وفهم العلاقة بينها، ثم يصوغ النتائج بشكلٍ غير قطعيٍّ، فلا يقدم إجابةً بسيطةً ومباشرةً كما يأمل البعض. مثال ذلك الكثير من النصائح التي يقدمها المتحدثون لزيادة الإقناع بصيغة «افعل كذا وتزيد قدرتك على الإقناع» بينما الدراسات العلمية حول الموضوع تخبرنا بأن هنالك عوامل عديدةً تؤثر على الإقناع، منها ما يتعلق بمصدر الرسالة، والبعض بمحتوى الرسالة ووسيلتها، وعوامل أخرى تتعلق بمستقبل الرسالة، وكل عاملٍ له شروطٌ تسمح له بالتأثير أو عدمه، وحتى عندما تجد الخلطة المناسبة من تلك الظروف فإن المختصّ يقدمها لك بصيغةٍ ظنيّةٍ على غرار "إذا توفر كذا وكذا فغالباً سيحصل كذا"، فلا قطعيات في العلم.

هذا الكتاب ليس أطروحةً علميةً موجهةً تحديداً للمتخصصين من الباحثين وأساتذة وطلبة الجامعات، وبالتالي لن يلتزم بالمستوى العالي من الشرح والتفصيل والاستشهاد بالمراجع العلمية، وإنما سأورد فيه الحد الأدنى والمقبول الذي ينير القارئ دون أن يضجره أو يشتت تركيزه. مع ذلك أتمنى أن يجد فيه طلبة العلم والممارسون في مجال العمل مع الحشود، إضاءاتٍ مفيدةً وتحديثاً لمعلوماتهم بالمجال، ويوجههم نحو المصادر العلمية الرصينة التي استفدت منها في مجال عملي وفي تأليف هذا الكتاب، وأصدقكم بأني وحتى بداية دراستي للدكتوراة كنت أجهل الكثير مما أبثه اليوم في هذا الكتاب، على الرغم من حصولي حينها على ماجستير في علم النفس المجتمعي، فلا يحسّ أحدكم بالتقصير لعدم علمه بآخر مستجدات هذا المجال، فمحدثكم هو أوّل المقصرين، وكلّ ما في الأمر أني كنت محظوظاً بالعمل عن قرب مع مجموعةٍ من الباحثين في المجال، فاقتبست من عِلمهم ما أنار لي مساحاتٍ مهمةً في فهمي للسلوك الجمعي.

ذاك الكتاب

اعتمدت في قراءتي لنصّ لوبون على الترجمة العربية لكتاب "سيكلوجية الجماهير" التي نشرها الأستاذ هاشم صالح في دار الساقي، والتي ضمّنها مقدّمةً طويلةً وغير اعتياديةٍ يشكر عليها، حيث أشار بلسان الخبير إلى العديد من الإشكاليات التي تعتري نظرية لوبون، كشف عنها التقدّم العلمي الذي حصل منذ تأليف الكتاب، وحذّر من بعض الأفكار البالية التي وردت فيه، مثل عنصريّته فيما يخصّ الأعراق، وضد النساء. كما احتوت هذه الترجمة أيضاً على مقدّمةٍ أخرى قيّمةٍ من قبل أوتو كلينبرج (Otto Kernberg)، التي ختمها بقوله "اقرأوا هذا الكتاب بروحٍ نقديةٍ، ولكن اقرأوه". ومع وجود تلك المقدمة النقدية الألمعية للأستاذ هاشم، إلّا أني رأيت أهمية وجود نقدٍ مختصٍّ مكرّسٍ لأطروحة لوبون، مع تقديم الأدبيات العلمية الحديثة والبديلة لها.

وهذا الكتاب ما هو إلّا محاولةٌ تصبّ في تحقيق نبوءة غوستاف لوبون، وهو مفكّرٌ فذٌّ يفهم آلية عمل المنهج العلمي عندما راهن على تقدّم الفهم العلمي لظاهرة الحشود بما يتجاوز التحليل الذي قدّمه، حين قال:[2]

" ودراستنا لروح الجماهير لا يمكنها أن تكون إلّا توليفةً مختصرةً، أو مجرّد تلخيصٍ لأبحاثنا. وبالتالي، فلا ينبغي أن يطلب منها القارئ أكثر من بعض الآراء ووجهات النظر الموحية. ذلك أنّه سيأتي باحثون آخرون يعمّقون الخط أكثر. فنحن لا نفعل اليوم إلاّ مجرد رسمةٍ على أرضيةٍ لا تزال مجهولةً جداً حتى الآن"

الفصل الأول
أين أخطأ لوبون؟

قبل استعراض إشكاليات نظرية لوبون والنقاط التي أخطأ فيها في تفسيره لسلوك الحشود، نُعيد التشديد على كون تلك النظرية تقادمت، فلا يؤخذ بها في المجال العلمي حالياً نتيجة جهود العديد من العلماء، الذين ركزوا جهودهم على هذا الموضوع واستمروا بتحسين الدراسات حوله، مستفيدين من التطورات في مجال المنهجية ونضوج معارف علم النفس، وهو ما لم يكن متاحاً للوبون في نهاية القرن التاسع عشر.

وفيما يلي نذكر ستة من المآخذ الرئيسة على كتاب سيكلوجية الجماهير (The Crowd)[3] تقع ضمن ممارستين قام بهما المؤلف.

الممارسة الأولى: استخدامه نظرياتٍ ومعارف نفسيةً بدائيةً منتشرةً في زمنه، وحالياً لا تعدّ ضمن النظريات العلمية المعتبرة لتفسير هذا النوع من السلوك، مثل فكرة الوحش داخل الإنسان والتنويم المغناطيسي والعقل الجمعي[4].

- الحشود العنيفة

قدم لوبون افتراضًا بأن الحشود عنيفةٌ بطبعها، ولربما تأثّر حكمه هذا بموضوع اهتمامه حينها، وهي أعمال الشغب التي عمّت بلده ما بعد الثورة الفرنسية، التي تميزت باضطراباتٍ سياسيةٍ طويلة الأمد تعاقبت فيها أنظمةٌ سياسيةٌ كثيرةٌ، وضعف الخدمات، وثوراتٌ متعددةٌ.

خارج هذا النطاق الضيق نجد أن افتراض عنف الحشود لا يكاد يصمد في الواقع، خاصةً ضمن تجارب أغلبنا، ممن يعيشون في مدنٍ ضخمةٍ يصل سكانها إلى ملايين البشر، فيمرّ أحدنا ضمن عدّة حشودٍ في اليوم الواحد دون أحداث عنفٍ تذكر، مثل الزحام أيام التخفيضات، أو حضور حفلةٍ أو فعاليةٍ ترفيهيةٍ، أو حضور مباراةٍ، أو حتى الذهاب للعمرة والحج. صحيحٌ أن بعض الحشود تتضمن أحداث عنفٍ محدودةً، ولكنها تبقى الاستثناء الشاذ وليست القاعدة، وأسبابها معروفة ويمكن التحكم بها[5]، وليست نتيجةً تلقائيةً وحتميةً لانضمام الفرد إلى حشدٍ، كما صوّرها لوبون.

إضافة إلى ذلك، حتى أكثر الحشود عنفاً والتي نجدها في أحداث الشغب، تمارس هذا العنف كأداةٍ لتحقيق أهدافٍ محددةٍ[6]، وليس نتيجةً لكون الفرد زالت عنه قيود المجتمع لينطلق الوحش المدمر المختبئ داخله، كما تصف نظرية غشاء الحضارة الرقيق (Veneer theory) التي تزعم أن سلوك التحضر هو مجرد غشاءٍ رقيقٍ يغطي سلوكاً بدائياً حيوانياً، يتميز بالعنف والأنانية التي لا تلبث أن تظهر في أول مناسبة ممكنة، مثل غياب سيادة القانون، أو التعرض لخطرٍ يهدد الحياة أثناء الكوارث والحروب[7]. وهي نظرةٌ للطبيعة الإنسانية تجدُ لها جذوراً في نظرية التطور لداروين الذي وصف «غريزة القتال» عند الإنسان وباقي الحيوانات، وسنداً في التحليل النفسي لسيغموند فرويد المعاصر للوبون، الذي يتبنى نظرةً ترى أن دور المجتمع هو قمع وتهذيب الوحش داخل الفرد الذي يتحيّن الفرصة للخروج[8]. بينما نجد أن دراسة الحشود تحوّلت من التركيز على اللاواعي غير العقلاني إلى دراسة عمليات التفكير (cognition) التي تولي أهميةً للبيئة والسياق الاجتماعي، باستخدام مفاهيم حديثة كما سيأتي لاحقاً، مثل دراسة مظفر شريف للصراع بين الجماعات[9].

”عنف الحشود يجب أن يتمّ تحليله ضمن السياقات السياسية والتاريخية وعلاقة الجماعات ببعضها، وضرورة النظر لسلوك الحشد بكونه مكوناً من أفرادٍ يفكرون ومُوَجّهين بمعايير وهويّاتٍ اجتماعيةٍ“ جون دروري[10]

2- الإيحاء والتنويم المغناطيسي

يعرض لوبون افتراضًا بأن الفرد عندما ينضم للحشد، فإنه يفقد السيطرة على نفسه، ويقع تحت تأثيرٍ خارجيٍّ من الآخرين فيما يشبه التنويم المغناطيسي، في محاولةٍ لتفسير ظاهرة تحوّل الأفراد المطيعين للقانون إلى أشخاصٍ ينتهكون القانون عندما ينضمون لحشود الشغب التي اهتمّ بها على وجه الخصوص.

مفهوم التنويم المغناطيسي والاعتقاد بقوة تأثيره الطاغي على الفرد كان شائعاً في القرن التاسع عشر، إلا أن استخداماته العلمية تراجعت، واتّضح أن الفرد في الواقع لا يُفقد السيطرة على نفسه، كما كان يُعتقد[11].

من المثير للاهتمام أن لوبون لجأ إلى تفسير التنويم المغناطيسي تفسيراً ينسجم مع افتراض أن سلوك الحشود غير عقلاني ولا يمكن أن يُقدم عليه

الفرد واعياً، بينما نجد أن كثيراً من الاحتجاجات والثورات توجد لها مبرراتٌ واضحة (بغض النظر عن الاتفاق معها) كالمطالبة بحقوقٍ أساسيةٍ، مثل حق العمل والرعاية الصحية، وحقيقة أن عدم احترام القانون في حالة الطبقات المهمشة قد يكون نتيجةً منطقيةً لاعتقاد المحتجين أن القانون لا يحمي حقوقهم وبالتالي يجوز انتهاكه، إلا أن تلك الفكرة لا يستبعد أن تكون خارج وعي لوبون الذي لا ينتمي لتلك الطبقات التي يأخذ منها موقفاً سلبياً مبدئياً[12]، بل إنه يأخذ موقفاً سلبياً من الأنظمة الديموقراطية عامّة.[13]

ساحر الجماهير

يقدم لوبون تحليلاً مُغرياً لظاهرةٍ مثيرةٍ، ألا وهي ظاهرة القائد الكاريزمي الذي يمتلك جاذبيةً غامضةً تتملّك ألباب الجماهير، وتُوقِعهم تحت تأثيره منساقين وراء أجندته وتنفيذها بحماسٍ وإيمانٍ كبيرين، حتى وإن كانت الحجج التي يقدمها لهم ليست منطقيةً.

لوبون يفسّر هذه الظاهرة من خلال امتلاك القائد القدرة على الإيحاء واللغة التي من خلالها يستطيع التأثير في الجماهير، وإدخالهم تحت سيطرته بما يشبه التنويم المغناطيسي. التفسير الذي قدمه لوبون يعاني من إشكالياتٍ مهمةٍ وجوانب قصورٍ واضحةٍ؛ كونه يركز بشكلٍ أساسيٍّ على القائد، ولا يأخذ بالحسبان عوامل أخرى مهمّةً مثل طبيعة العلاقة بين القائد والتابع ، فبناءً على تحليل لوبون، فإن تأثير القائد ينتشر كالأمواج في الجمهور ولا ينجو منه سوى الشخصيات التي تتميّز بالقدرة على مقاومة الإيحاء بغضّ النظر عما إذا كانت أفكارهم ومعتقداتهم موافقة لخطاب القائد، وهو زعمٌ لا يتفق مع الواقع، فالرئيس الأمريكي السابق دونالد ترمب يتمتع بشعبيةٍ طاغيةٍ بين أنصار الحزب الجمهوري، ويندر أن تجد له معجبين بين أنصار الحزب الديموقراطي، بغضّ النظر عن قابليتهم للتأثر بالإيحاء.

المأخذ الآخر والأهمّ على تفسير لوبون، هو أن تأثير القائد مقيّدٌ بحدودٍ اجتماعيةٍ، مثل الانتماء الوطني أو العرقي أو الديني، فعلى سبيل المثال استطاع أدولف هتلر أن يَسحر ألباب الكثير من مواطنيه الألمان ويجندهم في مخططه الاستعماري، إلا أن شخصيته الكاريزمية وأسلوب خطابه الحماسي لم يكونا كافيين لدفع الفرنسيين للانضمام إليه، فاستعان بالدبابات والطائرات لإقناعهم!

3- عدوى السلوك

يذكر لوبون أن السلوكيات تنتشر ضمن الحشد دون رادعٍ، بشكل يشبه انتشار الوباء من فردٍ إلى آخر دون أن يستطيع الفرد له دفعاً أو مقاومةً، فالسلوك الذي يقوم به بعض أفراد الحشد لا يلبث أن ينتشر ويعمّ باقي الأفراد كانتشار النار في الهشيم. وهذه الأوصاف على أنها تلمس أحد الجوانب الواقعية في سلوك الحشود، وهو السلوك الجمعي (حركة الأفراد بشكل متناسق متناغم) الذي يتميز أحيانا بالتفاعل السريع، إلا أنه وعند التحقيق نجد أن وصف انتشار السلوكيات ضمن الحشد كانتشار الوباء أو الحريق هو في أفضل الأحوال مبالغةٌ لا تُفيد في فهم حركة الحشود في الواقع.

انتشار السلوك ضمن الحشد قد يكون سريعاً بشكل يوحي بأنه تلقائيٌ ويفوق سلطة الفرد، إلّا أنه ليس خارجاً عن سيطرة الفرد، وهنالك عوامل تحد منه وتكبح انتشاره، وأحد الأدلة على ذلك يأتي من حوادث الشغب حيث يصطدم المتظاهرون بقوات الأمن، إلّا أن رجال الأمن لا يصابون بعدوى السلوك "العنيف والتخريبي" من جمهور المحتجين، ولا ينضمون لهم، بل إنه يمكن رسم خطٍ حقيقيٍّ يفصل بين الجماعتين اللتين تتميز كل منهما بسلوك مختلف عن الأخرى!

والحدود التي تفصل بين الحشدين هنا وتميز بين سلوكياتهم وتمنع تلك السلوكيات من الانتقال بين الجماعات، هي حدودٌ اجتماعيةٌ (شرطة في مقابل محتجين)، نفسيةٌ، بمعنى أنها قائمةٌ على إيمان الفرد بانتمائه لجماعةٍ محددةٍ، وهي الفاصل الحقيقي والمحدد في تبني الفرد لسلوك الحشد من عدمه، ولذلك يحصل أحيانا أن يتخلى أحد أفراد الأمن عن صفته الرسمية وينضم للمحتجين ويشاركهم أفعالهم، بينما يمتنع زملاؤه عن ذلك.

صورة لحشود متظاهرين في الجزائر عام 2011 [14]

4- ذوبان هوية الفرد وبروز العقل الجمعي

ينطلق لوبون من ملاحظةٍ مهمةٍ وواقعيةٍ، وهي التغيّر الجذري الذي يطرأ على سلوك الفرد حال انضمامه لحشدٍ ما، ولتفسير هذا التغيّر الكبير في السلوك، يلجأ إلى النظريات والتفسيرات السائدة في عصره، مثل مفهوم العقل الجمعي الذي يَفترض وجود وعيٍ خارجٍ عن الأفراد يقود سلوكهم، بشكلٍ مشابهٍ لخلية النحل التي تقوم كل نحلة فيها بدورٍ محدّدٍ ومتناسقٍ مع النحل الأخر، فيما يبدو كأنه خطةٌ موضوعةٌ مسبقاً. لجأ لوبون وتابعه الكثير من العلماء إلى وصف هذا التغيّر الجذري بالسلوك على أنه "ذوبانٌ للهوية"، ووجدوا في مفهوم العقل الجمعي تفسيراً وبديلاً منطقياً لوجود ما يحرك السلوك في غياب هوية الفرد. على الرغم من كون مفهوم العقل الجمعي لم يحز على رضى بعض مؤسسي علم النفس في عصر لوبون، مثل سيغموند فرويد، إلا أنه كان مفهوماً شائعاً في الأوساط العلمية حينذاك، وبدأ تراجعه منذ عشرينيات القرن الماضي بسبب افتقاده للدليل العلمي الاستقرائي[15] وظهور تفسيراتٍ أفضل للسلوك الجمعي.

لحسن الحظ، فإن علم النفس الحديث يوفر لنا أدواتٍ قادرةً وبشكل أفضل على تفسير التغيير الجذري في سلوك الفرد، وهذه المفاهيم الحديثة والافتراضات المبنية عليها يمكن التحقق منها علمياً، عكس مفهوم العقل الجمعي الذي كان افتراضاً نظرياً دون دليلٍ علميٍّ يسنده. يمكننا حالياً تفسير ذلك التغيير بالسلوك من خلال مفهومٍ واضحٍ مثل المعايير الاجتماعية، وهي قواعد للسلوك الاجتماعي توجهنا نحو ما يجب فعله أو تجنبه، وبالتالي نستطيع أن نفترض أن ما يحصل للفرد من تغيّر عند انضمامه لحشد إنما هو ناتج عن تغيّر في تفكيره عن نفسه، من كونه فرداً مستقلّاً يتبع المعايير الاجتماعية العامة للمجتمع إلى كونه عضواً في حشدٍ وجماعةٍ لها أهدافها ومعاييرها الخاصة والمختلفة عن عامة أفراد المجتمع، مثلما يُقبل من مشجعي كرة القدم الغناء بصوتٍ عالٍ والرقص في الملعب، ولكن لا يُقبل منهم ذلك في وسائل النقل العامة[16].

الممارسة الثانية: لم يبنِ لوبون نظريته على استقراءٍ علميٍّ متين (جمع بيانات مثل تجربة أو ملاحظة أو مقابلات) على الرغم من اعتماده على تحليل سلسلةٍ من أحداث الشغب التي وقعت بعد الثورة الفرنسية (1789م)، إلا أنه وللأسف اعتمد على مصادر منخفضة الموثوقية ولا تصف بشكلٍ دقيقٍ تلك الأحداث، كون مؤلفيها لم يوثّقوها بشكلٍ مباشرٍ، وإنما نقلوا عن مصادر أخرى تحدّثت

عنها. الإشكالية هنا أن الدقة تنخفض عند الأخذ من مصدرٍ أخذ عن مصدرٍ آخر؛ بسبب تغيّر المعنى نتيجة اختلاف فهم المؤلفين (ليس من رأى كمن سمع)، ولذلك غالباً لا تسمح الجامعات والمجلات العلمية للباحث بأن يستخدم مصدراً ثانوياً وتطالبه بالرجوع للمصدر الأصلي والاستشهاد به مباشرةً. قاد هذا الخطأ المنهجي إلى وصول لوبون لمجموعةٍ من الاستنتاجات المحورية، التي بناها على ما افترض أنه حقائق تاريخيةٌ مثبتةٌ، بينما لم تصمد الرواية التاريخية التي اعتمد عليها لوبون أمام الفحص التاريخي الذي قام به بعض الباحثين أمثال تومبسون [17] E.P. Thompson (1971) الذي رجع للمصادر الأولية التي وثّقت وبشكلٍ مباشرٍ مئاتٍ من حالات شغب المجاعات في بريطانيا خلال الفترة (1750-1820)، ووجد أنها ترسم صورةً مغايرةً عما ذكره لوبون في كتابه.

5- العنف العشوائي (الغوغائي)

من خلال المشاهد القليلة والانتقائية التي تصلنا عن عنف الحشود عبر شاشات الأخبار وصفحات الجرائد، يتشكّل عند كثيرٍ منا اعتقادٌ بأن عنف الحشود عشوائيٌّ؛ كونه يتجه نحو أهدافٍ غير متوقعةٍ، أو يصيب ما يبدو لنا أنهم مارّةٌ أبرياء، هذه الصورة تتكرّر أيضاً في الأعمال الأدبية، من أفلامٍ وروايات تستقي تصوّرها عن عنف الغوغاء المُنفلت والعشوائي من النظريات القديمة عن الحشود لتعيد نشرها وتعزيزها في أذهاننا.

على الرغم من هذا الغيث المنهمر من الصور النمطية عن عنف الحشود، إلا أن الصورة في الواقع وعند التدقيق والتوثيق مختلفةٌ عمّا رسمه لوبون من انفلاتٍ وعشوائيةٍ، ابتداءً من الثورات التي انتشرت في أوروبا قبل قرون، وانتهاءً بأحداث الشغب في شوارع بريطانيا عام 2011.

يذكر تومبسون -الذي درس ثورات الجياع في بريطانيا- أن جموع الحشود الغاضبة فعلا ارتكبت أفعالاً عنيفةً، ولكنها غالباً كانت مقصودةً وأهدافها محددةً بوضوح، حيث لم يقم المحتجون بنهب أول متجرٍ في طريقهم، وإنما استهدفوا متاجر التجار المشهورين بالاحتكار والاستغلال.

هذا العنف الانتقائي يتكرر ظهوره ضمن أحداث الشغب إلى يومنا هذا، حيث شهدت أعمال الشغب في لندن عام 2011 -التي امتدت إلى مدنٍ بريطانيةٍ أخرى- أعمال نهبٍ وحرقٍ للمتاجر، إلّا أن تلك الاعتداءات غالباً تركّزت ضد المتاجر الكبرى المملوكة لشركاتٍ، والواقعة في أحياء غنيّةٍ [18]. وفي احتجاجات هونغ كونغ عام 2019 تم تصوير مشهدٍ لحشود المتظاهرين وهم

يفسحون الطريق لمرور سيارة إسعافٍ، في حين أمضوا أياماً من الصدام مع الشرطة وبذل الجهد لإعاقة حركة مركباتهم[19].

متظاهرون في هونغ كونغ يفسحون الطريق لسيارة إسعاف

الغريب في تبني لوبون لفكرة العدوان والعنف العشوائي هو ذكره لأدلّةٍ تنقض فكرة العشوائية، حيث ذكر نماذج من المشاركين بالثورات، الذين تورعوا عن نهب الممتلكات الثمينة لضحاياهم، أو الاستيلاء على كنوز القصور التي اجتاحوها. أورد لوبون هذه الأمثلة للتدليل على أنّ الحشود قادرةٌ على ارتكاب "بعض الفضائل" من دون وعيٍ من أفرادها، بل إنّه ذكر أنّ الأفراد لو كانوا يَعُون واتبعوا العقلانية والمنطق "لربما انعدمت كلّ حضارةٍ على سطح كوكبنا وما تطورت، ولما كان للبشرية من تاريخ"!

6- دوافع العنف والنهب؟

وجد تومبسون عند رجوعه للمصادر الأصلية التي وثّقت أحداث شغب المجاعة، أن هنالك دلائل تدعم أنه وعلى الرغم من حالة الأوضاع السيئة التي عانى منها المحتجون، إلا أن أعمال الشغب لم يكن دافعها الأساسي السرقة والنهب. إضافة إلى ما ذكر سابقاً من كون الاحتجاجات استهدفت الانتقام تحديداً من التجار المحتكرين المتلاعبين بالأسعار، في بعض تلك الحالات وجد

أنّ الحشود استولت على المحتويات الضرورية من تلك المتاجر، ولكنها قدمت للتاجر سعراً عادلا مقابل بضاعته (بدلاً من السعر المتضخم)، بل إن بعضهم أعاد أكياس الحبوب للمتجر بعد تفريغها. وشبيهٌ بذلك، ما حصل أثناء العاصفة الثلجية التي اجتاحت ولاية تكساس عام 2020، حيث اضطر بعض الأفراد بسبب تلوّث مصادر المياه إلى أخذ صناديق علب الماء المكدسة أمام أحد المتاجر، ولكنهم وضعوا قيمة ما أخذوه من أشياء تحت باب المتجر[20]. وفي هذه الأمثلة القديمة والحديثة ما يدحض فكرة التوحش والأنانية، التي سنناقشها بالتفصيل لاحقا.

أموال وضعت تحت باب المتجر مقابل أخذ قوارير المياه المتروكة خارجا.

الفصل الثاني
نظرية بديلة (الهوية الاجتماعية)

كيف ظهرت نظرية الهوية الاجتماعية؟

يُنسب تأسيس منظور الهوية الاجتماعية (Social Identity Approach) بشكلٍ أساسيٍّ إلى جهود عالم النفس الأوروبي هنري تاجفل (Henri Tajfel) وفريقه البحثي (جون تيرنر ومجموعة من طلبة الدكتوراة) أثناء عملهم في جامعة بريستول البريطانية في الستينات والسبعينات، إلا أن دوافع تاجفل لتأسيس النظرية والأسئلة التي حاول الإجابة عنها ترجع لزمن أقدم من ذلك.

تاجفل ينحدر من أسرة يهودية عاشت في بولندا عشية الحرب العالمية الثانية، حين غادرهم لدراسة الكيمياء في جامعة فرنسية، إلا أن الحرب قطعت كل شيءٍ لينضم تاجفل إلى القوات الفرنسية، ثم أسيراً في معسكرات الألمان، ليعود بعد الحرب دارساً لعلم النفس وينضم لأفواج من علماء النفس الباحثين عن إجابة لأحد الأسئلة العميقة التي هزّت وجود الحضارة الغربية نتيجة للفظائع التي اُرتكبت في الحرب، والتي اختفت عائلة تاجفل في ضبابها.

الإجابة عن سؤال الشرّ

مثّلت الحرب العالمية الثانية زلزالاً عنيفاً للحضارة الغربية غيّرت طريقة تفكير الناس في جميع مناحي الحياة، ما انعكس بصورة قوانين جديدةٍ، وفنٍّ مختلفٍ، وفلسفةٍ جديدةٍ، وسلسلةٍ طويلةٍ من الحركات الاجتماعية التي غيّرت وجه تلك المجتمعات والعالم. أحد الأسئلة الصادمة لجوهر الحضارة الغربية كان يدور حول تفسير جرائم فظيعةٍ ارتكبت على نطاقٍ واسعٍ في حق المدنيين، من قبل أشخاصٍ يُفترض أنهم متحضّرون، نشأوا على قيم حقوق الإنسان واحترامه، مع إيمانٍ بحرية الإنسان واستقلاليته، ما لبثوا إلا سريعاً نحو التحوّل لأداةٍ قمعيّةٍ في يد مستبدٍّ! كيف للمهندس والمحامي الألماني الذي كان لطيفا مع الغرباء في الشارع قبل الحرب، أن يتحول لمتوحشٍ يلقي بطفل في فرنٍ مشتعلٍ؟ أظهرت محاكمات نورمبرغ التي أقيمت للضباط والمسؤولين الألمانٍ بعد الحرب، أنهم كانوا "ينفذون الأوامر"، وبدا أن سلوكهم عَكَسَ تغيّراً حقيقياً وجذرياً عمّا كانوا عليه قبل الحرب، ما يبدو أنه دعمٌ لما وصفه لوبون بذوبان الهوية.

المشهور في الثقافة العامة هي المقاربات الفلسفية لهذه الهزّة الحضارية، والأسئلة الصعبة التي طَرَحتها، مثل فقدان الإيمان بالوعد الحداثي الذي بشّر بتقدمٍ وتحسّنٍ متصاعدٍ بالقيم والظروف الإنسانية، لتأتي تلك الحرب بنكسةٍ تقضي على تلك الصورة الوردية والبقية من أنقاضها التي نجت من الحرب العالمية الأولى، ما مهّد الساحة أكثر من أي وقتٍ مضى لظهور فلسفاتٍ مختلفةٍ كالوجودية، أو حتى مقارباتٍ فلسفيةٍ محدّدةٍ حاولت الإجابة على سؤال الشر مثل تقديم حنّة أرندت (Hannah Arendt) مفهوم"تفاهة الشرّ"، الذي أوضحت فيه أن من يرتكب جرماً عظيماً مثل آيخمان مهندس الهولوكوست يكون مختلفاً تماماً عمّا نتوقعه كشخصٍ ملامحه إجراميةٌ ويمتلئ كُرهاً وحقداً على ضحاياه وأعدائه، بينما أظهرت سجلّات محاكمته أنه شخصيةٌ هادئةٌ ومنظّمةٌ خاليةٌ من الانفعال، يرتكب جرائمه وفق بيروقراطيةٍ رتيبةٍ!

في ساحة علم النفس -الاجتماعي تحديدا- كان العديد من الباحثين يتسابقون لتفسيراتٍ جديدةٍ لسؤال الشّر والكشف عن مصدره. لم يعد التصوّر التقليدي حول أسباب السلوك الإجرامي مفيداً بافتراض أن الإجرام طبيعةٌ لقلّةٍ معدودةٍ من الأفراد (يولد معهم)[21] بحيث يكون دورنا التعرف عليهم وتأهيلهم أو منعهم من ارتكاب الجرائم، بينما أظهرت الحرب أنّ أي واحدٍ منا هو مشروع مجرمٍ محتملٍ عند توفّر البيئة المناسبة، التي يبدو أن لها اليد الطولى في تحديد سلوكنا. تركّزت معظم تلك الجهود في الولايات المتحدة، حيث أظهرت تجارب سالمون آش (Solomon Asch) عام 1951 أنّ غالبية الأفراد ينصاعون لرأي الأغلبية إلى حدّ تكذيب أعينهم، وقام ستانلي ميلغرام (Stanley Milgram) عام 1961 بتجربة الصعق الكهربائي ليدلّل على أنّ الغالبية -حتّى ممّن يتبنون ثقافةً فرديّةً ويعيشون في مجتمع ديموقراطي- يمكن أن يقدموا على تعريض حياة الأبرياء للخطر حينما تصدر إليهم أوامر من رموز السلطة، والمحاولة الأشهر لفيليب زومباردو (Philip Zimbardo) عام 1971 في تجربة سجن ستانفورد الشهيرة، التي خلص منها إلى أن السياق والدور الاجتماعي الذي نوضع به هو ما يحول الفرد إلى مجرمٍ (حارس) أو ضحيةٍ (مسجون).

كانت هنالك علامةٌ فارقةٌ في تلك الجهود، وأقربها لفهم سلوك الحشود وعنف الجماعات قام بها مظفّر شريف (Muzafer Sherif) الذي أجرى في النصف الثاني من الخمسينيات سلسلة من التجارب لاكتشاف جذور الصراع بين الجماعات، كان أشهرها تجربة أطفال المخيم الصيفي (Robbers Cave Experiment)[22] التي استخلص منها أن الجماعات تتشكّل ويظهر الصراع بينها في ظلّ وجود تحدٍّ أو عدوٍّ مشتركٍ ويزول في غيابه، وربط علّة الصراع بين الجماعات في التنافس على الموارد الشحيحة[23] وصاغ من تلك النتائج نظرية الصراع الواقعي لتفسير الصدام بين الجماعات. وعلى الجانب الأوروبي من

المحيط، كان تاجفل يتابع تلك الجهود التي ألهمته للقيام بمساهمته الخاصة للإجابة على سؤال العصر وتصميم تجارب جماعات الحدّ الأدنى (minimal group experiments)[24] عام 1971، التي أوضح من خلالها أن جذور الصراع بين الجماعات ليست عوامل تقع خارجها كالموارد الشحيحة، وأنّ التغيّر الجذري لسلوك الفرد عندما يوضع في بيئةٍ اجتماعيةٍ مختلفةٍ ليس تحوّلاً آلياً وحتمياً استجابةً لتلك العوامل الخارجية (كما ألمح ميلغرام وآش وزومباردو)، وإنما العامل النفسي هو المهمّ، حيث يتغير سلوك الإنسان جذرياً عندما تختلف طريقة تفكيره ونظرته لذاته وللآخرين، فيظهر عنده التفضيل نحو أفراد جماعته والعدوانية تجاه الآخرين، حتى لو لم يعرف هؤلاء الأفراد أو يقابلهم إطلاقاً [25].

منظور الهوية الاجتماعية

على الرغم من كون نظرية الهوية الاجتماعية انطلقت بدايةً لتفسير ظاهرةٍ متوافقةٍ مع تحليلات لوبون للسلوك الجمعي، التي سَعت لتفسير التغيير الجذري السلبي لسلوك الإنسان عندما ينضوي في جماعة، كما حصل في جرائم الحرب العالمية الثانية، التي بدا وكأنها تؤكد سوء ظنّ لوبون بالجماعات البشرية، إلّا أن تطوّر نظرية الهوية الاجتماعية فيما بعد نتيجة الدراسات العديدة والمتتابعة أظهر تعقيد ظاهرة السلوك الجمعي، وقدّم دلائل على أن سلوك الجماعات الذي تقوده الهوية الاجتماعية نحو التدمير والعنف، أيضاً تقوده نحو التعاون والبناء. وهنا تمييزٌ مهمٌّ يختلف عمّا ذكره لوبون في كتابه عن كون الجماهير قادرةً على أن تكون مجرمةً أو بطلةً، فهو يشير فقط إلى قوتها التدميرية التي يحكم -من منطلق ذاتيٍّ وعقديٍّ- أنها تخدم هدفاً خسيساً أو نبيلاً، كما يتضح من استشهاده بأمجاد الحروب الصليبية ضد "الكفار".

تضع نظرية الهويّة الاجتماعية الأساس لهذا الفهم بتعريف الهويّة الاجتماعية على أساس نظرة الفرد لنفسه كعضوٍ في جماعةٍ، وليس فرداً مستقلاً، أو كما يذكر تاجفل (1974) بأنها "جزءٌ من مفهوم الذات الذي يُستمَدّ من إدراك الفرد لعضويته بجماعةٍ، والأهمّية العاطفية التي يضفيها على هذه العضوية"[26]. بينما جاءت نظرية تصنيف الذات (Self-Categorization theory) لاحقاً لتوضّح الآلية التي تفعّل إحدى الهويات الاجتماعية التي نمتلكها، كما يصف تيرنر عملية التحوّل والانتقال من الهويّة الفردية إلى الهوية الاجتماعية بأنها "تنميط الذاتSelf-Stereotyping"، بحيث يبدأ الفرد بالنظر لنفسه كفردٍ قابلٍ للاستبدال ضمن الفئة الاجتماعية (الجماعة)[27]. ومحصّلة هذه التحولات النفسية، أن تصبح اهتمامات "الآخرين" اهتماماتنا؛ كون إدراكنا لذاتنا اتّسع ليشمل الآخرين، وهو تحوّلٌ ضروريٌّ لتحقيق الأهداف العامّة للجماعة.

أفضلية نظرية الهوية الاجتماعية

استفادت نظرية الهوية الاجتماعية من التراكم المعرفي الذي حدث خلال 125 سنة في مجال علم نفس الحشود، والذي كشف جوانب قصورٍ مهمّةً في نظرية لوبون الأولية (كما تنبأ هو بذلك في كتابه)[28]، وتمثّل هذا التراكم في وصفٍ أكثر دقةً لسلوك الحشود، بناءً على مشاهداتٍ ميدانيةٍ موثقةٍ بعيدةٍ عن المبالغات في مدى عنف الحشود والغياب التام لشخصية الفرد، كما استفادت من التقدّم النظري الذي أوضح عدم علمية مفهوم العقل الجمعي، وضعف تفسيرات الإيحاء والتنويم المغناطيسي للجماهير. لم تتوقف أفضلية نظرية الهوية الاجتماعية عند الاستفادة من كل تلك الجهود، وإنما قدّمت إضافة نظريةٍ مهمّةٍ في فهم السلوك الجمعي، والتغيير الواضح في سلوك الفرد عند انضمامه لحشدٍ أو جماعةٍ، بالتشديد على أن مصدر وأساس هذا التغيّر السلوكي هو تغيّرٌ نفسيٌّ في المقام الأول، وليس ناتجاً عن قوةٍ خارجيةٍ كما ذكر لوبون، أو ناتجاً عن انصياعٍ أو تنافسٍ بين الجماعات على موارد شحيحةٍ كما استنتج مظفّر شريف وآخرون. هذا التغيير النفسي العميق ناتجٌ عن تغيّرٍ في نظرة الإنسان لنفسه والآخرين، بالانتقال من اعتبار نفسه كفردٍ مستقلٍّ إلى التفكير في نفسه كعضوٍ في جماعةٍ يشكّل انتماؤه إليها جزءاً مهمّاً في تعريفه لنفسه، وبالتالي فإنه يتبنّى أهداف تلك الجماعة ومعاييرها الاجتماعية، ويسعى للانسجام مع أفرادها، بل حتى التضحية من أجل الصالح العام لتلك الجماعة.

هذا الفهم الذي يربط بين العوامل النفسية والاجتماعية مفيدٌ جداً في فهم جوانب سلوك الحشود، ومن ثمّ تقديم تفسيراتٍ أفضل مبنيةٍ على أدلّةٍ يمكن قياسها، وبعيداً عن تفسيرات اللاوعي التي اعتمد عليها لوبون بشكلٍ أساسيٍّ.

التفسير البديل

انطلق لوبون في تحليلاته حول ذوبان شخصية الفرد التي تقود لعنف الحشود، التي لجأ إلى مصطلحات العقل الجمعي والتنويم المغناطيسي في محاولةٍ لتفسير التغيير الواضح والجذري في سلوك الفرد حال انضمامه للحشد، بينما قدمت نظرية الهوية الاجتماعية تفسيراً آخر لذلك التغيير الجذري في السلوك بناءً على تغيّرٍ في نظرة الإنسان لنفسه كعضوٍ في جماعةٍ، وتبنيه لمعاييرها الاجتماعية، فالفرد هنا لم ينزع عنه غشاء الحضارة ويطلق عنان الوحش البدائي المنفلت -كما زعم لوبون- وإنما "قرّر" الانضمام إلى جماعةٍ لها أهدافها ووسائلها الخاصة التي قد لا تتوافق مع المقبول في المجتمع العام، فيما يشبه تطبيقاً عملياً لمقولة "لكلّ مقامٍ مقالٌ"، أو فعلٌ يناسب هذا المقام.

أحد الأمثلة على ذلك، ما نقله البروفيسور ستيفن رايتشر (Steve Reicher) عن المتظاهرين في مدينة ساينت بول في الثمانينات، الذين ثاروا ضد شرطة المدينة، فكان المحتجون يرمون سيارات الشرطة بالحجارة، وعند مرور إحدى حافلات النقل العام قام أحد المحتجين برمي الحجارة عليها، فاعترض المحتجّون الآخرون، مبيّنين أن مشكلتهم هي فقط مع الشرطة وليس وسائل النقل العام التي تخدم الجميع[29]. لم تتوقف التفسيرات القائمة على الهوية الاجتماعية عند توضيح كون عنف الحشود مقصوداً وانتقائياً (موجهاً نحو أهدافٍ محددّةٍ)، بل قدّمت إضافةً قيّمةً بالتشديد على أن العنف ليس أصيلاً وملازماً لظاهرة الحشود، وقدّمت لنا مجموعةً من العوامل الخارجية التي تعمل على تحويل الحشد إلى عنيفٍ، بل إن الباحثين في هذا المجال قدموا نموذجاً نظرياً يصف تلك العوامل والخطوات التي تحصل أثناء عملية التحوّل نحو العنف[30].

أما بخصوص انتشار الاحتجاجات، تفسّر الهويّة الاجتماعية لماذا لا ينضم أشخاصٌ دون آخرين لتلك الحشود، وكيف تنتشر تلك الاحتجاجات إلى مناطق بعيدةٍ دون انتشارها في المناطق الأقرب إلى المركز حيث بدأت الاحتجاجات، في سقوطٍ لنموذج العدوى الذي استخدمه لوبون[31]. لا تتوقف القدرة التفسيرية للهوية الاجتماعية عند ظاهرة عنف الحشود، وإنما تمتدّ لتفسر جوانب أخرى، مثل تأثير القائد على الأتباع، الذي يفسّر بكون القائد الملهم هو الذي ينجح بتقديم نفسه كراعٍ لهوية الجماعة وأفضل ممثل لها، وبالتالي يحصل على ولاء الأتباع وتضحياتهم، لا لكونه سَحَرهم ونوّمهم مغناطيسياً بقدرته على الإيحاء وشخصيته الكاريزمية[32].

تطبيقاتٌ عامةٌ لنظرية الهوية الاجتماعية

على الرغم من كون الهوية الاجتماعية تقدّم تفسيراً مهمّاً لسلوك الحشود، والعوامل المؤثرة والعمليات النفسية التي يمر بها الفرد كونه ضمن حشدٍ، إلاّ أن هذه النظرية ليست خاصةً بسلوك الحشود، وإنما نظريةٌ عامّةٌ لها تطبيقاتٌ في مجالاتٍ عدّةٍ، لم تكن لتخطر على بال المؤسسين الذين سعوا أساساً لتفسير الصراع بين الجماعات. تتنوع مجالات التطبيقات ما بين دراسة ظاهرة القيادة، وعلم النفس التنظيمي، ودراسة السلوك الاستهلاكي والتسويق، ودراسة الظواهر السياسية مثل الشعبوية وصعود التيار اليميني وانتهاءً بمجال الصحة الذي يمثّل مجالاً يشهد إقبالاً متصاعداً على استخدام المنظور الاجتماعي في الدراسات المعنية بالصحة والمنشورة في المجلات العلمية[33].

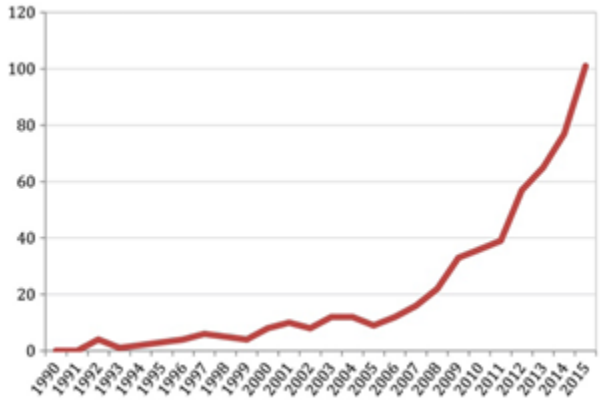

Figure 1 رسم يوضح الارتفاع في استخدام منظور الهوية الاجتماعية في المجال الصحي

الفصل الثالث
في الطبيعة البشرية

النظرة السوداوية للطبيعة البشرية

أنا من محبي أفلام ومسلسلات الخيال العلمي، أو التي تتناول نهاية العالم، وأفضلها عندي ما يجمع النوعين، وعلى الرغم من تنوّع أسباب فناء الجنس البشري في تلك الأفلام من النيازك أو التغيّر المناخي أو استخدام أسلحة فتاكة أو فيروس يحوّل الناس إلى زومبي (جثث تتحرّك وتأكل لحوم الأحياء)، إلا أن هنالك نمطاً يتكرّر في غالب تلك الأفلام، وهو سعي الشخصيات الرئيسة للنجاة، ليس فقط من الكارثة، وإنما من الأشخاص "الآخرين" ممّن يُصوّرون على أنهم خطرين متنافسين وعدوانيين. سابقاً لم أكن أرى بأساً في تلك التصورات عن الطبيعة البشرية؛ كونها مبرّرةً ضمن منطقٍ معينٍ، وهو أنّ الموارد إذا أصبحت شحيحةً فإن التنافس عليها يزيد، وبالتالي يلجأ الناس للعدوان لزيادة فرصهم بالبقاء. هذا المنطق يتبع افتراض (Zero-Sum Game) حيث إن ربح أي طرف يجب أن يكون على حساب الأطراف الأخرى، إلّا أنّي اكتشفت متأخّراً أن هذا المنطق يتجاهل أحد أسس طبيعة الحياة الاجتماعية، وهو التعاون الذي لا يضمن فقط توزيع الكعكة بالعدل، وإنما يعمل على زيادة حجم الكعكة وبالتالي زيادة حصّة كل فردٍ، وكما هو معلوم أنّ فرصة نجاة الفرد حال ضياعه في البريّة تزداد بشكلٍ كبيرٍ في حال كان معه آخرون، فالتعاون ليس بالضرورة تضحيةً للتعبير عن قيمٍ عليا، ولكنه أيضاً وسيلة بقاء فعّالةٌ.

في كتاب (Just Babies) [34] يذكر عالم النفس بول بلوم (Paul Bloom) أن تجاربهُ أظهرت امتلاك الأطفال وفي عمر مبكر (3-8 شهور) الحسّ بالإنصاف، بحيث يكافئون المتعاون ويعاقبون المسيء للآخرين، مما يدلّنا على أن هذ الحسّ الاجتماعي الإيجابي متجذّرٌ في الطبيعة البشرية وليس متعلّماً. إضافةً إلى ذلك، كانت هنالك جهودٌ علميةٌ متميّزةٌ في مجال الاقتصاد السلوكي، تضمنت سلسلةً من التجارب التي أظهرت عدم صحّة نموذج الإنسان الاقتصادي العقلاني الأناني الذي يقيم حساباته بناءً على مصلحته الذاتية بالورقة والقلم وبعيداً عن التأثّر بالآخرين أو المشاعر، حيث وجدت التجارب [35] أنّ الأفراد يميلون لمعاقبة المسيء حتى وإن أدى ذلك لخسارتهم، وأنهم يميلون للعطاء تجاه الغرباء حتى لو لم يكونوا مضطرين لذلك[36]. وهذا لا

ينطبق فقط على الحالات التي تهددّ البقاء، وإنّما ذلك يلاحظ في الحياة اليومية وفي أشدّ المجالات تنافسيةً، مثل مجال الأعمال، كما يذكر آدم غرانت في كتابه (Give & Take) الذي يستشهد فيه بأن من أكثر الناس نجاحاً في مجال الأعمال الأشخاص المعطائين جداً، عكس التصوّر العام بأن اللطفاء لا يحتلون المقدمة (Nice guys finish last).[37]

خرافة التنافس والعدوان

على الرغم من كمية السوداوية تجاه الطبيعة البشرية، المنتشرة في الفنّ والأدب والثقافة العامة وحتى في كتابات المتخصصين في العلوم الإنسانية والاجتماعية، إلا أن الصورة الواقعية لا تقف فقط عند إظهار الجانب الإيجابي لواقع سلوك البشر ونزعاتهم، بل إن هنالك أدبياتٍ علميةً كثيرةٍ وثّقت ودعمت فكرة أن حيّز التعاون والسِلم في تاريخ البشر أكبر وأكثر تأثيراً من جانب التنافس والعدوان. يذكر ريتغر برغمان (Rutger Bregman) في كتابه (البشرية: تاريخ متفائل Humankind) أنّ قدرة جِنسنا على التعلّم من بعضنا والتعاون معهم هي أبرز الصفات التي ساهمت في تطور وازدهار الحضارة الإنسانية[38].

تُورد الكاتبة الأمريكية ريبيك ا سولنت (Rebecca Solnit) في كتابها (الفردوس وسط الجحيم Paradise built in Hell)[39] أمثلةً عديدةً من الكوارث التي تمّ توثيقها في العصر الحديث، وأظهرت فيها المجتمعات قدراً عالياً من التضامن والتعاون، عكس التصوّر العام عن سلوك الناس في تلك المواقف. وثّق الكتاب أمثلةً من كوارث وحالات طوارئ مختلفةٍ كزلازل سان فرانسسكو 1906، وانفجارات لندن عام 2005، وفيضاناتٍ إعصار كاترينا عام 2005، التي حدثت في مجتمعاتٍ مختلفةٍ جغرافياً وثقافياً، إلّا أن ما جمع بينها هو استجابة المجتمع المحلي، التي تميّزت بشكلٍ عامٍّ بالتعاون والتكافل بين أفراد المجتمع، على الرغم من تعرضهم لأضرارٍ وشحّ الموارد.

الكارثة و"نحن"

قام مختبر أبحاث الحشود والهويّة الاجتماعية بجامعة ساسكس البريطانية[40] بعدّة دراساتٍ ركزت على الجانب النفسي لفهم أسباب هذا السلوك التكافلي، وإلقاء الضوء على الآليات التي تشكّل مجتمع ما بعد الكارثة وتسهّل عمله، وشملت تلك الدراسات مجتمعاتٍ تأثّرت بالفيضانات في بريطانيا[41] ومجتمعاتٍ تأثّرت بالزلازل في تشيلي[42] ومجتمعات لاجئي الحروب في الشرق الأوسط[43]، وفي كل تلك الحالات اتّضح أن للهويّة الاجتماعية الناشئة عن الكارثة دوراً محورياً في نشوء هذه المجتمعات وتفعيل آليات المساعدة

فيها. تَذكُر نظرية الهوية الاجتماعية أنّ الفرد يمرّ بعملية تحوّلٍ نفسيٍّ جذريةٍ عندما تتغير طريقة تفكيره بنفسه من فردٍ إلى كونه جزءاً من جماعةٍ، ومصداق ذلك في حالات الطوارئ أن الأشخاص الذين يواجهون تحدّياً مشتركاً يبدؤون بإدراك أنهم أعضاءٌ في مجموعة واحدة ويبدؤون بالتصرّف على هذا الأساس، مثلما حدث في قطار الأنفاق في لندن، حيث من غير المعتاد أن تنظر إلى شخص غريب فضلا عن بدء حديث معه، ولكن بمجرّد وقوع الانفجارات عام 2005 بدأ الناس بالحديث مع بعضهم البعض لتقييم الموقف، وبدأ تنسيق الجهود للتواصل مع العالم الخارجي وإيجاد طريقٍ للخروج والاعتناء بالمصابين[44]. قام الباحثون في المعمل بسلسلة دراساتٍ نوعيةٍ وكمّيةٍ لقياس مجموعة من العوامل ذات العلاقة بالهوية والتعاون بين تلك المجتمعات، وتوصلوا إلى نموذج نظري مقترح (Elaborated Social Identity Model) لكيفية تكوّن تلك الهوية المشتركة، وكيف تقود لتلك النتائج الإيجابية، حيث وجد أن الهويّة المشتركة "نحن" تنشأ عن إحساسٍ بالمصير المشترك الذي تولّده الكارثة، وبدورها تلعب هذه الهوّية الجامعة والناشئة على خلق توقّعاتٍ بالدعم المتبادل بين أفراد الجماعة، ما يسّهل تنسيق جهودهم ويزيد من إحساسهم بالفعاليّة وحتى صحتهم النفسية.

ملك الذباب... الواقعي

ساهمت النظرة التي صاغها لوبون للسلوك الجمعي في رسم صورةٍ قاتمةٍ عن الطبيعة البشرية، نجدها منعكسةً في كثيرٍ من الكتابات والأعمال الإبداعية الفكرية، التي بدورها أصبحت شواهد يستدعيها الفرد كدليلٍ على مدى سوء الناس وفساد جوهرهم الذي يظهر وقت الشدائد.

أحد الأمثلة على هذه الأعمال (الخيالية) هي رواية "ملك الذباب"[45] (1954) التي تحكي قصة سقوط طائرةٍ على إحدى الجزر، كانت في طريقها إلى رحلةٍ مدرسيةٍ. ينجو من الحادثة فقط طلاب المدرسة الإنجليز دون البالغين، في إشارةٍ إلى أن الأحداث السوداوية التالية لا تتحمل وزرها الثقافة والمجتمع، وإنما نبعت من الطبيعة البشرية الخام متمثلة في نفوس الأطفال، بل إن القبطان الذي ينقذهم في نهاية القصة يذكر أن أفعالهم المشينة لا تليق بصبيةٍ ينتمون للمجتمع الإنجليزي المتحضّر.

تصف رواية ملك الذباب أحداثاً متسارعةً، يغلب عليها التوتر والخوف الناتج عن الصراع المستمرّ بين الصبية منذ وصولهم للجزيرة وحتى لحظة إنقاذهم، الذي يتراوح بين السخرية مروراً بالنبذ الاجتماعي وانتهاءً بالقتل! يمضي أبطال الرواية معظم وقتهم بالصراع على السلطة والموارد وكسر التحالفات الهشّة

بينهم، تذكّر بمصطلح "الحالة الأصلية" التي وصفها الفيلسوف الاجتماعي الإنجليزي توماس هوبز (Hobbes Thomas)، زاعماً أن الأفراد قبل نشوء العقد الاجتماعي كانوا يعيشون حياةً لا تحتمل، يغلب عليها الصراع والعدوان والخوف.

كون الرواية خياليةً لم يمنع الكثيرين من الاستدلال بها على الطبيعة البشرية، في حين أن هنالك قصةً حقيقيةً[46] حدثت بشكلٍ مشابهٍ لظروف رواية ملك الذباب، وقادت لتسلسل أحداثٍ مختلفٍ جداً، ولكنّها ظلّت غير معروفة. في عام 1966م ذكرت إحدى الصحف الأسترالية خبر إنقاذ ستة طلاب أعمارهم بين 13 و16سنة تحطّم قاربهم على جزيرةٍ نائيةٍ قبل أكثر من سنةٍ، عندما هربوا من مدرسةٍ داخليةٍ بحثا عن المغامرة في عرض البحر. وعلى نقيض الكابتن المنقذ في رواية ملك الذباب، وجد القبطان الأسترالي الطلاب الستة في حالةٍ جيدةٍ، حيث تعاونوا في مهامهم خلال وجودهم على الجزيرة، وتجنبوا الصراع باتباع قواعد مشتركةً، واعتنوا بأحد أصدقائهم الذي تعرض لكسرٍ إلى أن تعافى، واستمرت صداقتهم بعد الحادثة إلى ما يقرب من خمسين عاماً.

تجربتي مع اللاجئين

في صيف 2016 كنت في طائرةٍ متّجهةٍ من بريطانيا إلى الأردن لبدء دراسةٍ ميدانيةٍ مع اللاجئين السوريين استمرّت ما يقارب ثمانية شهورٍ[47]. أثناء الرحلة راودني شعورٌ بالخوف، أن أجد واقع مجتمع اللاجئين مختلفاً عمّا قرأته في دراسات من سبقوني، الذين وثّقوا أن التعاون شائعٌ في المجتمعات أثناء الأزمات، حتى بين الغرباء. على الرغم من كون تلك الحالات الموثقة شَمَلت دولاً مختلفةً في ظروفها من أوروبا وآسيا وأمريكا الجنوبية، وأحداثاً مختلفةً في طبيعتها من الزلازل المدمّرة وحتى الهجمات الإرهابية، إلا أني -ربما بدافعٍ من الاستشراق الداخلي[48]- وميلاً للتفكير بأسوأ الاحتمالات راودني الشكّ باحتمال أن أجد واقعاً سلبياً ينتشر فيه التنافس والعدوانية بين اللاجئين.

وصلت إلى مدينة إربد الواقعة على الحدود الأردنية مع سوريا، وأقمت في حي غالبية سكّانه من اللاجئين السوريين، حيث عملت متطوّعاً بشكلٍ يوميٍّ ولأشهرٍ عديدةٍ في هذا الحي، وصادقت العديد من العائلات ودخلت بيوتهم واطّلعت على أحوالهم.

لاجئون سوريون في الأردن[49]

وقفت فعلاً على بعض حالات الاستغلال والعدوانية من بعض اللاجئين تجاه الآخرين، ولكني وجدت أكثرهم يساعدون الآخرين ويدعمونهم بطرقٍ مختلفةٍ، من ضمنها الدعم المادي على الرغم من فقرهم. تأمّلت طويلاً في أمثلة المساعدة والتعاضد من حولي في مجتمع اللاجئين على الرغم من ضعف مواردهم، فوجدت مستويات المساعدة والإيثار أعلى ممّا ألاحظه عادةً في المجتمعات التي تتميز بظروف مادية ممتازة وسياسية مستقرة، فكان التفسير أن سلوك التعاضد في المجتمعات المنكوبة وفقيرة الموارد هو الأمر الطبيعي والمنطقي؛ كونه وسيلة بقاءٍ حيث يساعد اللاجئون بعضهم البعض لأنه لا ملجأ آخر لهم.

المحرّك الأكبر وراء سلوك التلاحم كان إحساساً قوياً بالهوية المشتركة مع اللاجئين الآخرين (أحياناً حتى مع اللاجئين الفلسطينيين والعراقيين)، وإعادة تشكّلٍ للعلاقات الاجتماعية في المنفى لتشمل علاقاتٍ جديدةً مع أشخاص من مناطقٍ سورية وطبقاتٍ مختلفةٍ عما كانت عليه قبل الحرب. ذلك الانتماء وشبكة العلاقات الاجتماعية الجديدان كانا مصدراً لكل أنواع المساعدة التي وجدناها في مجتمع اللاجئين.

سلوك "الناس" خلال وباء كورونا

من صفات "الجماهير" في نظرية لوبون، اللاعقلانية والمبالغة في ردّة الفعل، وهو وصف لا يصمد طويلاً عند تفحّص الواقع.

في بداية أزمة وباء كورونا ظهر مقالٌ في صحيفةٍ كبرى لمسؤولٍ سابقٍ في وزارة الصحّة بعنوانٍ مرعبٍ يحذر فيه من "هلع" الجماهير كونه أخطر من

الوباء نفسه! الكاتب كان ناقداً لحملات التوعية حول الفيروس والاستعدادات لمواجهته قبل حدوث انتشار فعلي في البلد، مبررا ذلك بأن تلك الحملات وانتهاج الشفافية مع الجمهور يثير "ذعر" الناس بينما الطواقم الطبية مدربةٌ وخبيرةٌ وقادرةٌ على مواجهة التفشي[50]. مدلول المقال يتوافق مع فكرة تقليدية عند كثيرٍ من المسؤولين تنطلق من مسلّمة أن الجمهور يصاب بالذعر والهلع نتيجةً لأيِ معلومةٍ سلبيةٍ أو إشاعةٍ، ما يجعلهم يتصرفون بطريقةٍ غير عقلانية، وهو ما تكرّر في خطاب بعض القادة عالمياً مثل دونالد ترمب الذي دافع عن نفسه بعد انتشار الوباء بشكلٍ هائلٍ في بلده بقوله إنه لم يرد إثارة هلع الناس ولذلك لم يكن صريحاً مع مواطنيه بمدى خطورة الوضع.[51]

ماذا عن سلوك الناس فعلياً بعد انتشار الوباء؟ هل تحقق ما تنبأ به المسؤولون الخائفون؟ هل أُصيب الناس بالهلع والفزع الذي قاد إلى أضرار أكبر من الفيروس نفسه؟ أعتقد أننا قادرون على الإجابة على هذه الأسئلة وبثقةٍ كبيرةٍ، بعد انتشار كوفيد-19 لجميع دول العالم، الذي حصد أرواح ملايين الضحايا.

في بداية انتشار الوباء وفرض حالة الإغلاق ومنع التجول في مدن العالم، ظهرت كثيرٌ من الصور السلبية التي يبدو أنها تدعم شيوع الفزع فعلاً، مثل رفوف السوبرماركت الخالية، وطوابير المتسوقين، وبعض العراك العنيف لأسبابٍ تافهةٍ مثل مناديل الحمام! إلاّ أنه وعند تحليل تلك الحوادث والنظر إلى أزمة الوباء بشكلٍ عامٍّ يتّضح لنا أن المشكلة الأكبر لم تكن في المبالغة بالخوف، وإنّما كانت في الاستخفاف بخطر الفيروس، ما ساهم في تسارع انتشاره الذي قاد لإصابات ووفيات أكثر وعودة حظر التجوّل والخسائر المادية المترتّبة عليه.

شنّع الكثيرون على سلوك من تزاحموا على شراء التموينات في بعض الدول حال إعلان الحكومات حالة الإغلاق ومناشدة الجميع البقاء في بيوتهم لمدةٍ غير قصيرةٍ، إلا أن هذا التشنيع غير مبرر نظراً لوجود أسبابٍ منطقيةٍ وأخطاء في التعامل قادت لمثل هذه السلوكيات. استهزأ الكثير بسلوك المتسوقين واتهموهم باللاعقلانية، وعضّد هذه الرسائل الخاطئة تصريحات المسؤولين بأن "هنالك وفرة في السلع"، بينما في الحقيقة كان سلوك المتسوقين عقلانياً، ويدفعه خوفٌ منطقيٌّ وليس الفزع. وعندما ننظر لسلوك المتسوقين (بعيداً عن الأحكام المسبقة) لنجدها أيضا عقلانيةً (ضد فكرة الفزع). بغضّ النظر عن بعض الاستثناءات، المتسوقين كانوا يستعدّون لفترة عزل غير محددة المدة وكان الغالبية في الأسواق منظمين ويحترمون القوانين (لا يسرقون) بل حافظوا حتى على بعض الأعراف مثل تقديم كبار السن.

”نحن“ و”هم“

على الرغم من عدم تبني التصوّر السوداوي للطبيعة البشرية، يجب أن لا يدفعنا ذلك لتجاهل الجانب السلبي في الهويّة الاجتماعية، الذي يغذي كثيراً من الظواهر الخطيرة، مثل صعود اليمين المتطرّف، وكراهية الأجانب واللاجئين، والعنصرية، والقبائلية، وغير ذلك من مواقف نجد أنفسنا فيها عالقين في نمط تفكيرٍ سامٍّ يدور حول ”نحن“ و”هم“. يبدو أن محاسن الهوية الاجتماعية من دعمٍ تجاه من نحسّ بالانتماء نحوهم يترافق بنوع من الخوف والعدوانية نحو ”الآخَرين“، مما يخلق سحابة خوفٍ فوق رؤوسنا، يمكن أن تتحول إلى عاصفةٍ مدمّرةٍ لجميع الأطراف كما حصل في الحروب العالمية، ولربما هنالك أملٌ في ترويض هذه النزعة نحو ”المغايرة Othering“ عبر تجارب تكسر قوالب انتماءاتنا الاجتماعية، كما حصل مع مالكوم إكس الذي قُلِبت توجهاته الاجتماعية بعد تجربة الحج[52].

الفصل الرابع
نماذج من سلوك الحشود

همجية الحشود

أثناء تأليف هذا الكتاب حدثت بطولة كأس أمم أوروبا عام (2021) وانتشرت صورة لإحدى الساحات وقد امتلأت قمامةً بعد مباراة منتخبي إنجلترا وأسكتلندا، مع تعليقات مثل "هذا المشهد يكشف كذبة تحضّر ورقي الدول المتقدّمة". مثل هذه الانطباعات عن "همجية الحشود" منتشرةٌ في الثقافة العامة شرقاً وغرباً، وتتغذى هذه القناعة على مشاهد منتقاةٍ من فعاليات الحشود يتم عرضها وتفسيرها بصورةٍ خاطئةٍ لخدمة قضيةٍ عقديةٍ سياسيةٍ، أو بسبب ضعفٍ في فهم الظاهرة واختلافها عمّا تعودنا عليه في حياتنا اليومية.

أوّلا: الأرض الممتلئة بالقمامة ليست حصراً على حشود مشجعي الكرة -الذين يسهل اتهامهم بالهمجية - أو حضور جماهير الحفلات الغنائية، وإنما هي ظاهرة موجودة حتى في أكثر الحشود سلاماً وروحانيةً، مثل حجاج نهر الغانج في الهند، والتلوث الذي تصاب به مزدلفة كل عام أثناء الحج.

ثانيا: يجب إدراك أن حلول النظافة الناجحة في الحياة اليومية مثل سلّة قمامةٍ سعتها 50 غالوناً موزعة على كل 20 متراً، أو الاحتفاظ بمنديلٍ متسخٍ في جيبك أو زجاجةٍ فارغةٍ في يدك حتى تصل لسلة قمامةٍ هي أمورٌ غير عمليةٍ أثناء فعاليات الحشود؛ كون كثافة المشاركين عاليةً جداً بشكلٍ يفوق استيعاب سلّة القمامة ووقت بقائهم يمتد لساعاتٍ طويلةٍ، مع تقييدٍ لحركتهم مما يجعلهم ينتجون كمياتٍ أكبر من القمامة من الصعب حملها طيلة الوقت، ويجدر بالمنظمين القيام بترتيبات نظافةٍ خاصةٍ ومناسبةٍ للحشود.

ثالثا: يطرح منظور الهوية الاجتماعية تفسيراً مختلفاً قائماً على أن المعايير الاجتماعية (ما يجب فعله أو تجنبه) تختلف حسب الجماعة التي تنتمي إليها، وهو ما يفسر التغيّر الواضح لسلوك الفرد عندما ينضم لحشدٍ، فهو يتبنّى قواعد للسلوك مختلفةً عن المجتمع العام، فكونه تلبّس دور المشجّع ورقص وغنى بصوتٍ عالٍ أو حتى لم يهتم بالنظافة أثناء حدثٍ ترفيهيٍّ مؤقتٍ، فهذا لا يعني أنه غير متحضّرٍ بمعنى أنه لا يحترم القانون أو سيقوم بهذه الأفعال في الأماكن والأوقات الأخرى. وكسره "إحدى" قواعد السلوك "العام" لا يعني أنه

سيكسر كلّ قواعد السلوك والقوانين وبالتالي يُنظر على أنه خطرٌ على السلامة العامة ويجب اعتقاله، ما يؤدي غالباً لإطلاق شرارة العنف بين الحشد والشرطة.

وأخيراً فإن من ينقل المظاهر السيئة يتجاهل أحياناً السلوكيات الإيجابية، حيث تم توثيق حشود المشجعين وهم ينظفون الساحات المتسخة في اليوم التالي!

حشود الملاعب

تجربة واقعية

الهوليغانز Hooligans جماعات من مشجعي الكرة في إنجلترا، تسبقهم سمعتهم السيئة ويمثلون أسوأ الكوابيس لمنظمي البطولات الكروية بسبب تاريخهم العنيف والمليء بالمصادمات مع الجماهير الأخرى التي أدى بعضها لوقوع قتلى، كما حصل عام 1985 في بروكسل حيث راح ضحية تلك المصادمات تسعةٌ وثلاثون قتيلاً، ما قاد لسلسلة من العقوبات على المشجعين الإنجليز وأنديتهم التي حُرمت من المشاركة في البطولات الأوروبية والعالمية لسنواتٍ عدّةٍ.

في عام 2004 أقيمت بطولة كأس أمم أوروبا في البرتغال التي كانت متخوفة من جماعات الهوليغانز الإنجليز، فأصدرت قوائم أسماء لمنع دخول مثيري الشغب المعروفين لأراضيها، ولم يكتفِ المنظمون بذلك، بل استعانوا بمجموعةٍ من الخبراء الإنجليز في مجال علم نفس الحشود للتعرف على أفضل السُبل لتجنّب أحداث العنف بين الجماهير.

ما حصل في تلك البطولة كان مثالاً على أن الفهم الجيد لسلوك حشود الملاعب يساهم في تسييرها بسلاسةٍ وتخفيض أحداث العنف، وساحةً لتجربةٍ علميةٍ لم يكن مخططاً لها. الخبراء -وبالتعاون مع منظمي البطولة- قدموا عرضاً لأجهزة الأمن في المناطق التي تحتضن مباريات البطولة، لتزويدهم بالتوصيات العلمية لتجنب وتخفيض حالات شغب الجماهير، وكان هنالك جهازيْ شرطة، أحدهما تبنى توصيات الخبراء، بينما الجهاز الآخر قرر تجاهل تلك التوصيات، والاستمرار في طريقتهم التقليدية في التعامل مع المشجعين، ما خلق فرصةً ممتازةً للمقارنة بين نتائج التعامل التقليدي مع الحشود والتعامل المبني على التوصيات العلمية الحديثة، خاصةً أن الأسلوبين تتم تجربتهما في نفس الوقت وعلى نفس الجماهير.[53]

أوصى الخبراء بضرورة تفهم دوافع الجماهير من حضور الدورة، فعامّة الجماهير سافروا وتكلفوا من أوقاتهم وأموالهم الكثير، أملاً في قضاء وقتٍ ممتعٍ، ودعم الفريق الذي يشجعونه بشغفٍ، ولم يخرجوا من بيوتهم وفي أذهانهم التخريب والاعتداء على الآخرين، ومعاملتهم على هذا الأساس -كمجرمين محتملين- أمرٌ غير مبررٍّ، ويقود إلى نتائج عكسيةٍ حين استفزاز أعدادٍ كبيرةٍ من الجماهير واستثارة الحس الدفاعي لديهم من خلال التعامل العدواني معهم. تجنّب التعامل العدواني مع الجماهير كان عبر عدّة وسائل،

منها تخفيض مظاهر العسكرة على أفراد الشرطة، مثل تجنب ارتداء عدّة مكافحة الشغب (خوذة - صدرية - عصا)، واستقبال المشجعين بالابتسامات والرسائل الإيجابية، وتجنب تنقل أفراد الشرطة ضمن مجموعاتٍ كبيرةٍ قد تثير خوف المشجعين منهم، كما قدم الخبراء نصائح محددةً في حال حدوث مخالفاتٍ من المشجعين، هدفها نزع فتيل تصاعد العنف وخروجه عن السيطرة، فوجّهوهم للتعامل مع تلك المخالفات بشكلٍ فرديٍّ، وتجنّب العقاب الجماعي، كونه من أسوأ الممارسات، حيث يعمل على توحيد حشود الجماهير ضد الشرطة نتيجةً لإحساسهم بالظلم، ولسان حال كلٍّ منهم يقول "أنا في حالي ولا علاقة لي بالمشكلة، ولكن إن ظلمتني وعاملتنا سواءً كجماعةٍ، فسنُصبح جماعةً وندافع عن أنفسنا". البديل الأمثل للتعامل مع تلك المخالفات يكون عبر تحديد الأشخاص المُخالِفين وعزلهم عن باقي الحشد، ثم إيقاع العقوبة على المخالف، مع توضيح المخالفة للباقين وسبب معاقبة هذا الفرد، وهذا التواصل الفعال والشفافية أيضاً تنسحب على الحالات التي يضطر المسؤول فيها إلى اتخاذ إجراءاتٍ عامةٍ ربما تكون غير متوقعةٍ من قبل الجماهير، حيث يجب توضيح هذه الإجراءات ومبرراتها للجماهير حتى لا ينشأ الإحساس بالمظلومية ويحفّز الحسّ الدفاعي لدى الجمهور ضد المنظّمين.

أُجريَت مقابلاتٌ مع الجماهير أثناء البطولة التي أظهرت أنه عند تطبيق هذه التوصية تحديداً وُجد أن عامة الجماهير كانوا يأخذون موقفاً سلبياً من مثيري الشغب بينهم، حيث نظروا إليهم على أنهم أفسدوا متعة الجميع بسبب المخالفات التي قاموا بها، وخلقوا سمعةً سيئةً للباقين، بينما في حال العقاب الجماعي وبسبب الإحساس بالمظلومية يتعزّز الانتماء للحشد ويتحول مثيرو الشغب إلى قادةٍ يلتفّ الأفراد حولهم ويُنظر لهم كمدافعين عن الحشد ضد عنف الشرطة (غير المبرر).

بعد نهاية البطولة، وُجد أن المنطقة التي طَبّق المنظمون فيها توصية خبراء الحشود لم تشهد أي أعمال شغبٍ كبرى، عكس المنطقة التي لم تطبّق التوصيات، حيث شهدت أيضاً عددًا أعلى من اعتقالات المشجعين، ما يدعم كفاءة توصيات الخبراء.

من التوصيات المهمة في التعامل مع الحشود وتجنب تحولها نحو العنف هو ضرورة فهم الجمهور الذي تواجهه، بمعنى فهم ثقافة الجمهور (جمهور مباراة ربما يكون مختلفاً عن جمهور حفلةٍ موسيقيةٍ) وفهم المعايير الاجتماعية التي تحكم سلوك الجمهور، فسلوكيات مثل الصوت العالي وحتى الصراخ والرقص في الشارع هو أمرٌ غير مقبول عادةً وربما يشير إلى أن الشخص في وضعٍ غير مستقرٍّ، وربما خطرٍ، ولكن تلك السلوكيات تعدّ مقبولةً تماماً بين المشجعين

أثناء الأحداث الرياضية، ولا يجب أن تستنفر الأجهزة الأمنية أو يُخلط بين تلك التصرفات والاعتداء على الأبرياء والممتلكات.

نفسيّة الملعب

لقد شَهِدت شخصياً -أثناء إقامتي في بريطانيا- كيف يمكن أن ينشأ سوء الفهم نتيجة عَدم إدراك اختلاف معايير المشجعين عن معايير السلوك العام، حيث كنت في حافلةٍ عائداً في المساء من الجامعة حين توقفت عند الملعب القريب منها، لتدخل مجموعةٌ من الجماهير وهم يغنّون بصوتٍ عالٍ، كان المكان مزدحماً، فأكمل المشجعون غناءهم وقوفاً قرب الجالسين بهدوءٍ والمتعبين من أعمالهم العائدين إلى منازلهم. لفت انتباهي أحد المشجعين الذي كان يغني بصوتٍ عالٍ جداً وهو يقف بجانب إحدى الراكبات، مما أثار خوف السيدة لتترك مقعدها وترجع إلى مؤخرة الباص وسط نظرات الاستغراب والاستهجان من باقي الركاب نحو المشجع "الوقح".

بناء على ما ذكرناه من اختلاف المعايير عند الحشود عن معايير السلوك العامة في المجتمع، فالمتوقع أن هؤلاء المشجعين المزعجين ممن أقلقوا هدوء الركاب وأخافوا بعضهم، لم يكونوا خطيرين فعلاً، وإنما أُسيء فهمهم وتمّ الحكم عليهم دون اعتبار الحالة النفسية التي كانت تتملكهم حينها، حيث كانت أجسادهم في النقل العام بينما عقولهم لم تزل بالملعب وحماسته، ما جعلهم يسحبون معايير المدرجات (ما هو مقبول وغير مقبول) إلى ساحةٍ عامّةٍ تختلف فيها السلوكيات المقبولة.

حادثة ملعب هلزبرة 1989

تعدّ هذه الحادثة واحدةً من أسوأ حوادث ملاعب كرة القدم التي تركت أثراً غائراً في ذاكرة جمهور الكرة، وغيرت من بروتوكولات تنظيم العديد من البطولات والمنافسات الرياضية؛ بسبب وقوع عددٍ كبيرٍ من الضحايا، وتحت أنظار عدسات الإعلام الذي نقل جوانب صادمةً من الكارثة، وصوّر الفتية وهم يستغيثون مسحوقين على سياج الملعب، حيث مات منهم ما يقارب المائة وأصيب مئاتٌ آخرون.

ما حصل في ملعب هلزبرة بالمملكة المتحدة أثناء مباراة ليفربول ونوتنغهام التي حضرها أكثر من خمسين ألف مشجع، يمكن الاتفاق على كونه كارثةً إلا أن أسبابها ليست بذلك الوضوح، حيث أعيد فتح ملفّ الحادث وشكّلت الحكومة البريطانية لجنةً مستقلّةً عام 2009 [54]. في حين حمّلت التقارير الرسمية السابقة مسؤولية الحادث على الجماهير وعدم التزامهم بالتعليمات، وصّحت نتائج التحقيق الجديد أن المشجعين لا يتحملون مسؤولية الكارثة، مع ذكر سلسلة من الأخطاء التي وقع فيها المنظمون وأجهزة الأمن والطاقم الطبي أسهمت بالكارثة، مثل تخصيص مساحة صغيرة لمشجعي نادي ليفربول (النادي الأكبر) سعياً لعزلهم بعيداً عن مشجعي النادي الآخر، وفَشلَ المنظمون في توجيه الجماهير، وفشلت الشرطة في فتح المخارج، مع وجود إشكاليات أمنٍ وسلامةٍ في المبنى، وتأخّر وصول خدمات الإسعاف.

حشود الحج

الحشد المتحضّر

تمثّل حشود الحج -في كلّ الديانات- السلاح الأمضى والحجّة الأوضح في وجه التصوّر الشائع عن عنف الحشود، حيث تتّسم حشود الحج بشكلٍ عامٍّ بالسلامة والتسامح مع بعض الحوادث الاستثنائية التي تنتج عادةً بسبب عوامل خارجيةٍ يمكن التعرّف عليها وتعديلها، كما حدث مع منشأة رمي الجمرات في مكّة، مما حسّن سجلّ السلامة للحج، وأنقذ الكثير من الأرواح.

في ظلّ الانفجار السكّاني الذي حصل في العقود الأخيرة، وتركز في مناطق تنتشر فيها دياناتٌ كبيرةٌ وقويةٌ مثل الإسلام والهندوسية، زادت حشود الحج وتضاعفت بشكلٍ خياليٍّ، فأصبحت جموع المؤمنين في تلك الفعاليات بالملايين، ممن يهدفون لعمل نفس الشعائر وفي نفس الأوقات، ما يشكّل تحدياً كبيراً للمنظمين. على الرغم من كون الحجاج أكثر أنواع الحشود تنوعاً في خلفية الأفراد الذين يختلفون في الجنسية واللغة والعمر والمستويين التعليمي والاقتصادي، إلا أن الملاحظ هو وجود تجانسٍ وانسجامٍ إلى حدٍّ كبيرٍ، وهو ناتجٌ في الغالب من استحضار الفرد لهويته كحاجٍّ، وانتمائه لمجموع الحجاج الذين يشابهونه في اللباس ويشاركونه الشعائر، مما يطغى -أثناء الحج- على انتماءاته الأخرى.

يذكر لوبون أن الفرد عندما ينضمّ إلى حشدٍ فإنّ ملكاته الفكرية تنحطّ إلى حالةٍ قريبةٍ من الحيوانات وينزع عنه غشاء التحضّر، وهو وصف فيه من التجنّي الشيء الكثير وسبق دحضه في الفصلين الأول والثاني. الدراسات التي ألقت الضوء على الجانب النفسي الاجتماعي في الحج قليلةٌ، ولكني سأذكر عيّنةً منها آمل أن تكون كافيةً لبيان قابلية الحشد ليكون قوةً دافعةً للفرد نحو مزيدٍ من التحضّر والرقي في التعامل.

آمناً في سربه

في أوائل الدراسات التي قام بها د. هاني النابلسي[55] وركزت على تقييم المخاطر في الحج، قام باستطلاعٍ كبيرٍ بين الحجاج أثناء الموسم، كشف من خلاله نتيجةً مهمةً تفسّر ظاهرةً أساسيةً تميّز الحج، كما قدّم إضافةً نظريةً قيّمةً في فهمنا للعلاقة بين كثافة الحشود والإحساس بالخطر عند الأفراد ضمن الحشد. من الملاحظ في الحج أن كثافة الحشود تتخطى المستويات الموصى بها (4-6 أشخاص في المتر المربع) خاصةً في بعض المناطق كالقريبة من الكعبة (هنالك تقارير بوصول الكثافة إلى عشرة أشخاصٍ في المتر المربع) وعلى الرغم من ذلك لا تحصل حوادث إلا نادراً، أحد العوامل التي تساهم في هذا المستوى الحَرِج من الحركة الآمنة هو انسيابية الحركة وما يبدو على الحجاج من الطمأنينة وعدم الإحساس بالخطر على الرغم من الازدحام الشديد.

كثافة الحشود بالحرم المكي[56].

هذه الظاهرة تبدو وكأنها تتحدى المتعارف عليه في فهمنا العلمي للظاهرة، حيث من المعلوم أن الإحساس بالخطر عند المشاركين في الحشود يزداد ويرتفع كلّما ارتفعت كثافة وازدحام الحشد، إلّا أن هذه الدراسة أظهرت أن هنالك عاملاً إضافياً يتحكم بالإحساس بالخطر، وهو مدى الإحساس بالانتماء للحشد، بحيث كلّما أحس الفرد بأنه ضمن حشدٍ ينتمي إليه (جماعته) فإن إحساسه بالخطر ينخفض، على الرغم من الزحام الواضح له. يبدو أن هذه الظاهرة تساهم في انسيابية حركة الحشود، إلّا أن لها جانباً آخر لا يجب إغفاله، قد يسهم في كوارث الحشود، حيث ربما يدفع إحساس الفرد "الزائف" بالأمان إلى جعله ينغمس في مواقف خطرةٍ تقوده والآخرين للتهلكة.

كتفاً بكتف

يصل حجم المشاركين في الحج الهندوسي في أكبر دوراته إلى خمسين مليوناً من الهندوس الذين يتوجهون إلى نهر الغانج لممارسة طقوسهم على مدار أيامٍ عديدة، ما يجعل ذلك المكان من أكثر الأماكن ازدحاماً في العالم. يحصل ذلكً في بيئةٍ صعبةٍ جداً يخلقها هذا الحدث بسبب الزحام الكبير والضوضاء العالية والتلوث السمعي والبيئي. على الرغم من هذه الظروف التي قد تُمرض الشخص العادي في الظروف العادية، إلا أن المشاركين في هذا الحدث يبدو أنهم يتأقلمون جيداً معها، بل ويشعرون بتحسّنٍ، طبقاً للقياسات

التي قام بها البروفيسور ستيفن رايتشر وفريقه البحثي[57]، والذي عزا هذه التأثيرات الإيجابية وربطها بالانتماء الاجتماعي وتأثيره الإيجابي على الصحة النفسية وحتى الجسدية، وهو ما يتوافق مع مفهوم الشفاء الاجتماعي «Social Cure» والذي أقيمت عليه العديد من الدراسات النفسية والتي لخصها البروفيسور ألكس هاسلم Alex Haslam في كتابه (علم نفس الصحة الجديدNew Psychology of Health).

وهنا وقفةٌ مع جانبٍ سلبيٍّ قد ينشأ عن الانتماء الاجتماعي، حيث وثقت هذه الدراسات أن التماهي مع الجمهور يقود إلى تخفيض المسافة بين أفراده وتخفيض الشعور بالقرف تجاه أفراد الحشد، مما قد يساهم بعدم الاهتمام بالنظافة الشخصية حول أفراد الجماعة الآخرين، وبالتالي قد يزيد من فرص انتشار الأمراض ضمن الحشد.

الحشد المعزّز للفضيلة

دراسات د.هاني النابلسي ألقت الضوء على أحد الجوانب الإيجابية في تجربة حشود الحج، حيث أظهرت أنّ الإحساس بالانتماء نحو الحشد يمكن أن يكون قوةً مؤثّرةً في دفع الحجاج نحو تحسين سلوكهم وتقديم المزيد من المساعدة للحجاج الآخرين، في ظاهرة أسماها الباحثون "تعزيز التعاون الفاضل Cycle of Virtuous Cooperation". وفقا لنتائج الدراسة يبدو أنّ الحاج الذي يتميز بانتماءٍ عالٍ نحو جماعة الحجاج، فإنّه يكون أكثر تأثراً عندما يشاهد قدوةً أمامه يساعد شخصاً آخر، ممّا يزيد احتمالية تقديمه هو شخصياً المساعدة للآخرين. التأثير لا يتوقّف هنا ولكنه يتصاعد بشكلٍ كبيرٍ مثل الشلّال، لسببين؛ أولاً: لأنه يبدأ بإدراك الشخص القدوة الذي قدّم المساعدة على أنّه عضوٌ مثاليٌّ في الجماعة، فيزيد إحساسه بالانتماء للجماعة، وبالتالي احتمالية تقديمه هو شخصياً المساعدة للآخرين؛ ثانيا: بعد تأثر الشخص بالقدوة وتقديمه هو شخصياً المساعدة للآخرين، فإنه يزيد من عدد القدوات داخل الجماعة، وبالتالي يزيد من تحفيز باقي الأعضاء على تقديم مزيد من المساعدة لبعضهم.

تأثير مالكوم إكس

مالكوم إكس هو أحد قادة الحركات الاجتماعية المطالبة بحقوق السود في الولايات المتحدة الأمريكية، اعتنق الإسلام في بدايات شبابه، وانضمّ إلى حركة "أمّة الإسلام" ليصبح من أهمّ قادتها وأشهرهم. تميّزت خطب مالكوم

إكس بحماستها وبلاغتها والملاحظات العميقة اللاذعة، ما جعل أقواله تخلد لزمنٍ طويلٍ بعد اغتياله في منتصف الستينات، إلّا أن مسيرة مالكوم إكس الفكرية شهدت نقطة تحوّلٍ جذريةً عندما أدى الحج عام 1964 حيث تحوّل فهمه للإسلام إلى نسخةٍ أكثر تنوعاً وتقبلاً من النسخة التي تعتمدها جماعة "أمّة الإسلام" التي تمثل العرق الأسود فقط، والتي قطع علاقته بها حال عودته.

مصطلح «تأثير مالكوم إكس Malom X Effect" تمّ استخدامه إشارة إلى التغيّر الذي تحدثه تجربة المشاركة بالحج -أو فعالية مشابهة- على وعي الفرد، بحيث يصبح أكثر انفتاحاً على الجماعات الأخرى وتقبلاً لها، وجاء تفصيل هذا التأثير وآليته في ورقة علمية[58] أوضحت التحوّل الحاصل في مفهوم الهوية الاجتماعية، بحيث يساهم اتساع هذه الهوية لتشمل جميع الحجاج أو المسلمين -مقارنة بالهويات السابقة مثل الجنسية أو العرق- بالتأثير على مواقفنا المسبقة من الجماعات الأخرى وأخذ موقف أكثر تقبلاً للتنوّع والتعددية.

realpagex0072 x الاحتجاجات والمظاهرات والشغب

الاحتجاجات والمظاهرات وأحداث الشغب من أكثر الظواهر إثارةً في مجال علم نفس الحشود؛ بسبب شدّة الأحداث التي تتخللها، وحجم الآثار التي تنتج عنها، فلا عجب أن كثيراً من الباحثين والمفكرين ركزوا جهودهم على دراسة

هذا الجانب من ظاهرة الحشود وصفاً وتحليلاً، إلا أنه وللأسف لازال هنالك استخدام لبعض المفاهيم غير العلمية دون تمحيصٍ أو مراجعةٍ.

فشل مفهوم العدوى

تستخدم كلمة «عدوى (Contagion)» كثيراً لوصف انتشار الاحتجاجات والاضطرابات، إضافة إلى بعض التشبيهات الأخرى كانتشار النار، وهذا الأسلوب يبدو أنه من رواسب عصر الثورة الصناعية، حيث كانت العلوم الإنسانية في بدايتها، وساد استخدام التشبيهات المستعارة من العلوم الطبيعية، مثل تشبيه سلوك البشر بالحيوانات والحشرات، كما فعل مالتوس عندما قدّم نظريته السكّانية في القرن الثامن عشر، التي افترض فيها أن التعداد السكاني تنطبق عليه قوانين مملكة الحيوان فيما يخص التوازن بين عدد أفراد الجنس والموارد المتاحة له، وبالتالي توصل إلى معادلةٍ رياضيةٍ مفادها أن الجنس البشري سيتعرض لأوبئةٍ وكوارث وحروبٍ تخفّض من تعداد البشر؛ لأن الموارد الطبيعية لن تكفي الجميع. لم تتحقّق تنبؤات مالتوس على الرغم من شهرتها وجاذبية المعادلة الرياضية التي قدّمها، لسبب بسيطٍ وهو أن الظاهرة الإنسانية مختلفة جذريًا عن الظاهرة الحيوانية؛ كون سلوك الإنسان محكوماً إلى حدٍّ كبيرٍ بالثقافة (مثل ابتكار طرقٍ جديدةٍ لإنتاج الغذاء وتأخّر سن الزواج)، وهي أكثر تعقيداً (العوامل والمؤثرات أكثر) من الظاهرة الأحيائية، ما يجعل السلوك الإنساني، وخاصةً الاجتماعي، مختلفاً نوعياً عن السلوك الحيواني، فضلا عن عدم صحة تشبيهه بظاهرةٍ فيزيائيةٍ (جامدةٍ) مثل انتشار الحريق.

تشبيه انتشار الاحتجاجات وافتراض أنها تنتشر كانتشار الميكروبات المسببة للأمراض، هو تشبيهٌ مضلّلٌ وغير مفيدٍ، كونه يفترض أن الاحتجاجات تنتقل "تلقائياً" عبر الأفراد والمجتمعات (دون أي دورٍ لهم)، وأن هذا الانتشار هو تدريجيٌّ من المركز للأطراف، بينما في الواقع فإن انتشار الاحتجاجات يأخذ نمطاً مختلفاً، حيث ينضم عادةً الأشخاص الذين تمسّهم قضيتها أو المتعاطفون معها، أو ممن لديهم موقفٌ معارضٌ للسلطة ومآخذ عليها، كما أن الاحتجاجات لا تنتشر من الأقرب للأبعد كما في حالة الأمراض، وإنّما تنتقل أحياناً لمناطق بعيدةٍ أسرع من انتقالها لمناطق قريبةٍ لا يحصل فيها شيءٌ، كما حصل في أحداث شغب عام 2011 التي بدأت في لندن وانتشرت لمدنٍ بريطانيةٍ أخرى.

لمدة ثلاث سنوات (2016-2019) قام فريقٌ بحثيٌّ بريطانيٌّ[59] مدعومٌ من المجلس الأعلى للدراسات الاقتصادية والاجتماعية، بدراسة أحداث الشغب التي حدثت عام 2011؛ بهدف فهم طرق انتشار الاحتجاجات والعوامل المؤثرة على انتشار السلوك بوجهٍ عامٍّ. تضمّن الفريق البحثي مجموعةً من المتخصصين في علم نفس الحشود إضافةً إلى علم النفس التجريبي، ومؤرّخاً عَمِلَ على توثيق أحداث الشغب بطريقةٍ منظمّةٍ بعيداً عن تحيّزات الإعلام والسياسة.

خرجت الدراسات بمجموعةٍ من النتائج المهمة، حيث وجدت أدلّةً على أن انتشار الاحتجاجات ليس تلقائياً، وإنما يتأثر بالعوامل الاجتماعية، مثل الانتماء، حيث يكون تأثير الآخرين على الفرد أكبر عندما ينتمون إلى جماعته، وأنّ سلوك المحتجين كان مقيّداً بما هو مقبولٌ أو مرفوضٌ ضمن تلك الجماعة، كما وجدت الدراسات أن أعمال العنف كانت مقصودةً تجاه أهدافٍ محددةٍ وليست عشوائيةً.

إضافةً إلى تقديم أدلّةٍ على أن انتشار الاحتجاجات لا يتمّ تلقائياً على نمط "العدوى" وإنما يتأثر بعوامل خارجيةٍ تتحكّم بالانتشار من عدمه، مثل الهويّة الاجتماعية، إلّا أن الباحثين لم يتوقفوا عند ذلك، وإنما وجدوا أدلّةً على أن عدوى السلوك (الانتشار التلقائي) غير موجود حتى في أبسط السلوكيات التي نعدّها تلقائيةً ومعديةً، مثل التثاؤب والابتسام أو حكّ الجسد وتؤثر عليه عوامل أخرى، حيث أظهرت التجارب أنّ تلك السلوكيات تنتشر بين أفراد نفس المجموعة (الاجتماعية) أكثر من انتشارها بين الأفراد الذين ينتمون لمجموعاتٍ مختلفةٍ[60].

القائد الكاريزمي ساحر الجماهير

تعرضنا في الفصلين الأول والثاني إلى نقد فكرة القائد الذي يسحر الجماهير بقدرته على الإيحاء، فيعطل المنطق والعقلانية عندهم، فيدخلهم بحالةٍ أشبه بالتنويم المغناطيسي، فيُصبحون طوع إشارةٍ منه، وينخرطون في مشاريعه ويضحون بأنفسهم من أجل تحقيقها.

وعلى الرغم من عدم دقة الأوصاف التي أوردها لوبون للظاهرة وما اتّضح من قصورٍ في تحليله لها، إلا أن القيادة المُلهمة وانخراط كثيرٍ من الجماهير فيما يبدو أنه "اتّباعٌ أعمى" للقائد تظلّ ظاهرةً مُلاحظةً وموثّقةً، بل وحتى شائعةً

في وقتنا الحالي في ظلّ صعود اليمين المتطرّف في كثير من الدول، ونجاح عددٍ من القادة للوصول إلى الحكم بناءً على الشعبية الطاغية، على الرغم من عدم حيازتهم مميزات السياسي المتعارف عليها، والرئيس الأمريكي السابق ترمب الذي رفع شعار «لنُعِد عظمة أمريكا» من الأمثلة الواضحة على ذلك.

يطرح منظور الهويّة الاجتماعية تفسيراً مختلفاً للتأثير الطاغي الذي يمارسه القائد على أتباعه بشكل أكثر فعاليةً من تأثير الحجج المنطقية والإقناع. وبشكلٍ مبّسطٍ، فإن القائد من خلال هذا المنظور يمارس سلطته من خلال تفعيل الهويّة واستثارة الانتماء للجماعة عند الفرد، ما يجعله مستعداً لتقبل أفكار القائد الذي يبدو له ممثلاً للجماعة ورمزاً لها، وهنا وقفةٌ مهمّةٌ؛ لأنّ التابع في هذه الحالة يضحّي من أجل الجماعة، وما القائد هنا سوى رمزٍ وأيقونةٍ تمثّل الجماعة وتخدمها. ويفيدنا مفهوم الهوية الاجتماعية في فهم ظاهرة القيادة، وخاصةً القادة الشعبويين منهم، الذين بُني نجاحهم وقوّة تأثيرهم على حقيقة أنهم "روّاد الهوية الاجتماعية"، بمعنى أنهم قادرون على الوصول إلى مخزون الهويّة الاجتماعية عند جمهورهم وتفعيله عبر تقديم أنفسهم كممثلين لتلك الجماعة التي ينتمي لها الجمهور، وأنهم مكرّسون لخدمتها والإعلاء من قيمتها والنيل من الجماعات المنافسة والخصوم، كما فعل دونالد ترمب في حملته وجملته الشهيرة "لنُعِد عظمة أمريكا Make America Great Again" حتى إن هذا الشعار واختصاره "MAGA" أصبح علامة تجارية مميزة للرئيس ترمب وأتباعه وقطاع عريض من اتباع الحزب الجمهوري.

قاد هذا المنظور الجديد في فهم دور القيادة إلى إعادة النظر في تفسير العديد من الجهود العلمية المهمّة والمؤثرة التي حاولت تسليط الضوء على سلوك الانصياع للسلطة، حيث كشف هذا المنظور الجديد وجود قصورٍ في تلك التفسيرات السابقة، مما يؤثر في فهمنا لبعض الجوانب المهمّة من الطبيعة البشرية. شملت تلك المراجعات تجربة الصعق الكهربائي التي قام بها العالم ستانلي ميليغرام، وتجربة أطفال مخيم الكشافة لمظفر شريف (ذكرت التجربتين في الفصل الثاني)، إلا أن أوضح أمثلة تلك المراجعات كان حول تجربة سجن ستانفورد التي أقامها عالم النفس الأمريكي فيليب زومباردو عام 1971، التي تضمّنت مجموعةً من الطلاب تمّ تقسيمهم عشوائياً إلى حرّاسٍ ومساجين، وبمرور عدّة أيّام بدأ الحرّاس يسيئون استخدام السلطة المتاحة لهم عبر الإساءات العنيفة تجاه المساجين، ما قاد إلى إنهاء التجربة قبل الموعد المقرّر. كثيرٌ من الانتقادات ثارت حول تلك التجربة منذ حدوثها وحتى مؤخراً[61]، إلا أن أحد أهمّ الانتقادات الموجّهة للتجربة كان تفسيراً بديلاً لسلوك الحرّاس، على أنه نتيجة قائد (زومباردو) أقنع اتباعه (الحراس) بأنهم يقومون بخدمة للمجتمع والعلم في حال تصرفوا بعنفٍ مع المساجين، وهو ما

كشفته الوثائق التي أفرجت عنها جامعة ستانفورد بعد مرور خمسين عاما على التجربة[62]. وقد أجرى العالمان هاسلم ورايتشر تجربةً مماثلةً لتجربة سجن ستانفورد عام 2002، تم توثيقها وتسجيلها بشكلٍ حيٍّ من قبل قناة «بي بي سي»[63]، وتوصلت إلى نتائج مختلفةٍ عن تجربة ستانفورد، حيث وجد أن الحراس لم ينزعوا تلقائياً نحو التسلط والعنف تجاه المساجين وفقا للافتراض بأنّ "السلطة المطلقة مفسدةٌ مطلقةٌ".

الحشود في الإعلام

يحلو للجميع انتقاد الإعلام كما يحلو لهم جميعاً متابعته!

ينطلق كثيرٌ من النقد للإعلام في رأيي من عدة إشكاليات، بعضها لا علاقة مباشرة له بموضوع كتابنا، مثل كونه متأثراً بمصالح مالكيه، أو كون الجزء الأكبر منه مكّرساً للترفيه وليس للتوثيق والتوعية والتثقيف كما يتصور بعض الفضلاء. لكن الجانب الأخطر في نظري يتعلّق بتوقعاتنا أن الإعلام يعكس صورةً واقعيةً عن العالم الذي نعيش فيه، كما تجذبنا الأفلام التي تُفتتح بجملة "مبني على قصةٍ واقعيةٍ" ونتابع خلالها جرائم سرقةٍ وقتلٍ تحصل داخل الأسر، في حين لا يعرف بعضنا أسرةً حصلت لها إحدى تلك الجرائم إلّا نادرا. صناعة الإعلام ليست بريئةً، ولكنها لا تتحمّل كامل وزر التركيز على السلبيات في حياتنا وتضخيمها، فالإعلام تشكّل بهذه الصورة بسبب أحد التحيزات الذهنية الموجودة لدى كلّ واحدٍ منّا، وهو تحيّز الانتباه نحو المعلومات السلبية، وأبسط مثالٍ على ذلك هو امتلاء هواتفنا بالقصص المتداولة التي غالباً ما تكون سلبيةً، مثل الحوادث والفضائح. تحيّز الانتباه للمعلومات السلبية يُفترض أنه يساعدنا في الانتباه لمصادر الخطر في حياتنا اليومية وتجنّبها، ولكن الإشكالية أنه تمّت برمجتنا بتلك الطريقة عندما كنا نعيش في مجتمعاتٍ صغيرةٍ (بلدةٍ أو ريفٍ أو باديةٍ) حيث عدد الأخطار والأشياء غير المعتادة فيها أصلاً قليل، بينما حياتنا المعاصرة مختلفةٌ جداً، ومحاولة الانتباه للسلبيات فيها مرهقةٌ جداً وغير مفيدةٍ، إضافةً إلى أن الأخطار التي تراها في الأخبار والأفلام والإنترنت ليست بالضرورة موجودةً في حياتك اليومية. النتيجة النهائية لهذا التحيّز الإعلامي نحو المعلومات السلبية هو خلق صورةٍ مشوّهةٍ للواقع الذي نعيش فيه، بحيث نتوقع الأسوأ دائماً ونُسيء الظن بالأغراب -غالبية من حولنا- ونعاملهم على هذا الأساس الذي بدوره لا يخرج أفضل ما فيهم تجاهنا، وكما قال أستاذ

الاقتصاد في جامعة كورنيل روبرت فرانك «عندما يتمّ تشجيعنا على أن نتوقّع الأسوأ من الآخرين، فإنّ ذلك أيضا يخرج أسوأ ما فينا».

الآن وبعد التبرئة الجزئية للإعلام من وزر التغطيات السلبية، فلدي بعض المقترحات للإعلام فيما يخصّ الحشود، أتمنى أن تجعل من تغطياتهم أكثر احترافيةً وفائدةً للجمهور والمسؤولين، فيما يخص استخدام مصطلحات مثل «الفزع» و«الهلع» و«التدافع». كما كرّرت سابقا، فإن فعاليات الحشود غالباً ما تكون سِلميةً، ولكن عندما يحصل حادث في تلك الفعاليات فإن هنالك ردّة فعل تلقائيةً عند الأغلبية الساحقة من وسائل الإعلام لوصف الحادث بأنه تدافع ناتج عن هلع وفزع الجمهور، إلاّ أنه عند التحقيق يتّضح أن غالبية تلك الأحداث ليست تدافعاً ولم "تنتج" بسبب الهلع والفزع.

مفهوم الهلع والفزع (Panic)

"لا يموت الناس بسبب الفزع، الناس يفزعون عندما يواجهون

الموت" بروفيسور كيث ستيل من جامعة مانشيستر

إحدى النقاط الأساسية التي يَجدر بالإعلامي إدراكها عند تغطيته لحوادث الحشود، هو أن الخوف الذي يشعر به الناس أثناء حالات الطوارئ لا يعني أنهم أصيبوا بـ"الهلع" أو "الفزع" كون هذه المصطلحات مدلولها مختلفاً، وهنالك شروطٌ يجب توافرها قبل استخدام هذه المصطلحات، بينما يتمّ التساهل في أطلاقها عادة بشكلٍ خاطئ حتى من قبل أكبر المؤسسات الإعلامية الاحترافية، كما حصل في تغطية قرار إغلاق مدينة ووهان الصينية نتيجة لتفشي فيروس كوفيد-19، حيث وصفت قناة CBS أن عمليات الإخلاء تتم في أجواء من «الفزع المتصاعد» دون تقديم أي دليل على ذلك، بينما أظهرت تغطية CNN لنفس الحدث آلاف ركاب القطار المغادرين في آخر رحلة من المدينة عبر انتقالٍ سلسٍ ومنظّمٍ للركاب داخل المحطة دون إشكالات!

تحمل مفردتا الفزع والهلع مدلولاتٍ سلبيةً كما أن تعريفهما يتضمّن "مبالغةً" بالخوف، إضافةً إلى النقطة الأهم، وهي أن الهلع هو سلوكٌ غير عقلانيٍّ غير مبرّرٍ، حيث يعرّف على أنه "ردّة فعلٍ متسرّعةٌ وغير عقلانيةٍ تجاه خطرٍ مُدركٍ"[64] الإشكالية المرتبطة في استخدام مصطلح الفزع هي أنه يشير إلى ردّة فعلٍ تطغى على الحكم العقلاني للفرد ولا تتقيد بالمعايير الاجتماعية، وهو ما لا يتّسق مع سلوك الناس أثناء الأزمات كما تمّ توثيقه.

تدافعٌ أم تحطّمٌ

تتداول كلمة التدافع كثيراً كلّما يحصل حادث للحشود، كما حصل في حوادث الحج المتعدّدة، وفي حادث جسر الأئمّة في كربلاء (2005)، وحادثة لاك بعومر التي راح ضحيتها العشرات من الحجاج اليهود عام 2021. وعلى الرغم من كثرة تداول المصطلح إلا أنه نادراً ما يتمّ شرحه في تلك التغطيات والتقارير عنها. مصطلح التدافع «stampede» أتى إلينا من وصف سلوك قطعان الحيوانات، وبالتالي يشير إلى سلوكٍ غريزيٍّ وبدائيٍّ، وعادةً يستخدم لوصف الأفرادِ ضمن حشدٍ، وهو مختلفٌ عن مصطلح الفرار من الخطر الذي قد يكون عقلانياً ويصدر عن الفرد مستقلاً لوحده. مصطلح التدافع يفترض أن الفرد ضمن الحشد، وعند إحساسه بالخطر يبدأ بتجاهل واجباته الاجتماعية نحو الآخرين -كما في الأوقاتِ العادية- وتسيطر عليه الأنانية، فيبدأ بإسقاط الآخرين ودهسهم "عمداً" والتحوّل لقاتلٍ من أجل النجاة من الخطرِ "المدرك" (ليس بالضرورة خطراً حقيقياً). وهنا يجب التمييز بين التدافع ونوعٍ آخر من حالات الحشود القاتلة، وهو التحطّم (Crush)، حيث يَعْلق الفرد وسط حشدٍ ذي كثافةٍ عاليةٍ،ويتم تقييد حركته ودفعه بقوة التيار التي تصل إلى حد الضغط على القفص الصدري ومنعه من التنفس، وهذا الانضغاط عادةً يكون تدريجياً فمن ناحيةٍ لا يتاح للفرد الواقع فيه إدراكه والهروب منه مبكراً، ومن ناحية أخرى فإن الأفراد في نهاية الحشد ممن يساهمون في ذلك الضغط غير متعمّدين وغير مدركين تراكمه الذي يصل إلى قوةٍ قاتلةٍ في مقدمة الحشد، وغير مدركين لكون الحشد توقّف بسبب عائقٍ.

تحليل لحادث جسر الأئمة

قام خبير علم نفس الحشود البروفيسور جون دروري (John Drury) من جامعة ساسكس بتحليل حادث جسر الأئمة الذي وقع في بغداد عام 2005[65]، عبر مقارنة تسلسل الأحداث مع ما تم ذكره في التغطيات الإعلامية. في صباح 31 أغسطس وأثناء إحياء ذكرى استشهاد الإمام موسى الكاظم كان الآلاف من الزوار الشيعة يعبرون جسر الأئمة الذي يربط بين الأعظمية والكاظمية، عندما انتشرت إشاعة أن هنالك إرهابياً بينهم يحمل أحزمةً ناسفةً. وفي استعراضٍ سريعٍ للتغطية الإعلامية للحادث، يبدو أن العناوين والروايات العامة تشير إلى الهلع والفزع والتدافع وتؤكد حدوثها، حيث ذكر أنه تم دهس كبار السن والنساء، وكان الناس يدفعون بعضهم بعضاً أثناء هربهم في اتجاهاتٍ عشوائيةٍ، مع محاولاتٍ يائسةٍ للهرب من المكان عبر القفز من الجسر والسقوط في النهر. هذا الوصف السريع والمختصر للأحداث لا يوفي الحادثة حقّها ولا يمكّننا من فهمٍ جيّدٍ للكارثة وأسبابها المحتملة. من الإشكاليات في الخطاب الإعلامي

أن العناوين والاستنتاجات التي يصوغها الإعلاميون كثيراً ما تناقض تفاصيل الأحداث التي وثقوها بأنفسهم، وينطبق ذلك على هذه الحادثة.

أولا: ذكرت «بي بي سي» في تغطيتها للحادث أنه سبقته عدّة هجمات من تنظيمات إرهابية استهدفت مواقع شيعيةً، وهذا يفيد بكون خوف الناس كان مبرراً ومبنياً على حوادث مشابهةٍ وقريبةٍ.

ثانيا: أثناء الحادث تم توثيق العديد من محاولات الناس مساعدة بعضهم، بل إن البعض فقد حياته أثناء محاولة إنقاذ من وقعوا في النهر، مما ينافي الصورة السائدة عن السلوك الأناني الخطر على الآخرين.

ثالثا: كان هنالك العديد من الأشخاص مضغوطين بسبب كثافة الحشد مما جعلهم عاجزين عن الحركة ومساعدة الآخرين، وفقا لشهود عيانٍ حيث كان الكثير يطلبون النجدة، وبسببٍ هذا الضغط الهائل وقع البعض من الجسر إجباراً وليس اختياراً "لا عقلانياً" منهم، بينما قفز الآخرون ممن يستطيعون السباحة في النهر لإنقاذ أنفسهم. وختاما، كانت هنالك تقارير تفيد بمسؤولية ا لمنظمين عن الحادث بسبب ضعف توجيه الحجاج مما قاد لوجود كثافةٍ عاليةٍ على الجسر وقت الحادث.

ما سبّب الضغط داخل الحشد ليس فقدان الأفراد السيطرة على أنفسهم بسبب الفزع، وإنما افتقادهم للقدرة على النظر ومعرفة ما يوجد أمامهم خاصةً في غياب التوجيه، ما يعني أن الكارثة كان يمكن تجنبها باتخاذ تدابير وقائية. هذا التحليل لا ينفي كون بعض الأفراد على الجسر انتابهم الفزع أو أن بعضهم تصرّف بأنانيةٍ، بل ينسجم حتى مع افتراض أن الكثيرين أصابهم الخوف فعلاً، ولكنه يهدف إلى توضيح أن الفزع والهلع نادران وليسا سبب وقوع ما يقارب ألف قتيلٍ، وأنّ التركيز على تلك السلوكيات النادرة غير مفيد في فهم الكارثة ويعمينا عن أسباب أكثر تأثيراً وأهمّيةً يمكن تجنّبها.

الفصل الخامس
تطبيقات عملية

نصائح عملية في إدارة الحشود

في هذا الفصل أحاول أن أمارس فضيلة التعاون بين العلمي والعملي، كون العلم ليس ممارسة رفاهيةٍ، وإنما هو نشاطٌ يهدف للفهم الذي يمكننا من التنبؤ بالظواهر وبالتالي التعامل معها بشكلٍ أفضل. وعليه، سأقدم بعض التوصيات المبنية على الفهم العلمي، عسى أن يجد بها المهتمون والمختصون ما يفيدهم في فهم سلوك الحشودٍ في الواقع والميدان، مع حفظ التقدير للخبراء الميدانيين ممن بذلوا جهداً وأوقاتاً عظيمةً في التعامل مع الحشود في الميدان والإعلام والسياسة، ممن قد يكون لهم رأيٌ مختلفٌ عما أعرضه هنا.

تطرقنا سابقا إلى أسطورة الحشود العنيفة بطبيعتها، وكيف أن الحشود غالبا لا تكون عنيفةً، وعندما "تتحول" إلى حشودٍ عنيفةٍ فإن هنالك ظروفاً وأسباباً محددةً وراء ذلك التحوّل. الفهم العلمي لظاهرة سلوك الحشود لم يكن طريقه سهلا (ولا يزال أمامه الكثير)، إلّا أنه يَعِدنا بفهمٍ أفضل، وبالتالي تكون القدرة أكبر على التنبؤ بسلوك الحشود حتى نتمكّن من التعامل معها بشكلٍ أفضل، وخلق تجربةٍ أفضل للجماهير تسهل عمل المنظمين، وتقلل احتمالية الحوادث. هنا سأورد بعض النصائح التي تهدف إلى تقليل احتمالية تحوّل الحشود نحو العنف، وهي نصائح مبنيةٌ على نظريةٍ وتجارب علميةٍ وعمليةٍ لخبراء عالميين.

1- تجنّب الاستفزاز

من الأخطاء التي يقع فيها المنظمون -عن غير قصدٍ أحياناً- هو استفزاز الحشود، مما يرسل لهم إشاراتٍ سلبيةً تجعلهم يحسون أنهم في بيئةٍ معاديةٍ، وبالتالي يكونون متأهبين للدفاع عن أنفسهم واللجوء للعنف (المبرّر في نظرهم). كما أوضحنا في الفصل السابق، والتجربة التي أجريت في كأس أمم أوروبا 2004 في البرتغال، فإن أحد هذه الاستفزازات الرئيسية ينبع من افتراض أن الحشود هم مجموعة من مثيري الشغب، وبالتالي يتم تسليح المنظمين أو الشرطة بعدّة الشغب (خوذةٌ ودرعٌ وعصا)، مما يجعل شكلهم مخيفاً، ويترك أثراً سلبياً على أفراد الحشد الذين جاؤوا غالباً لأهدافٍ سلميةٍ.

من الإجراءات المستفزة التي يقوم بها المنظمون أيضاً، إرسال دورياتٍ أمنيةٍ تتضمن عدداً كبيراً من أفراد الأمن، ما قد يثير الرهبة في نفوس الجمهور، ويعزز النظرة السلبية تجاه المنظّمين بكونهم جماعةً معاديةً. وكمثالٍ على الموقف الإيجابي والمبادر نحو إزالة أي علاماتٍ قد تستفز الجماهير، نجد أن منظمي الحج في السعودية يبذلون جهوداً مقصودةً لبناء علاقةٍ إيجابيةٍ مع الحشود، عبر لَمساتٍ وديةٍ، مثل استقبالهم في المطار بالزهور والهدايا، ورشّ الماء، وتوزيع الغذاء، ومساعدتهم في المناسك، وهذه السلوكيات ليست فقط للاستخدام الإعلامي، وإنمّا ضرورةٌ لتجنب خلق علاقةٍ عدائيةٍ بين المنظمين والحشد، عبر تعزيز إحساسٍ بأن الجميع ينتمون لنفس الجماعة (في نفس الخندق)، وليسوا جماعتين بينهما صراعٌ، وملاحظٌ خفض ملامح العسكرة عند قوات الأمن السعودية المنظمة للحج منذ سنوات عديدة.

2- الانتقال من التحكّم إلى التيسير

هنالك نزوعٌ تلقائيٌّ نحو التحكّم بالآخرين، ربما يكون منشأه عدم الثقة بالآخر أو عدم القدرة على التنبؤ بسلوكه، أو بكل بساطةٍ عدم احترام جماعات الحشود، لكن في حالة التعامل مع الحشود يبدو أن أفضل النتائج تحصل عندما تكون هنالك ثقةٌ متبادلةٌ وتقديرٌ لاحتياجات الطرفين من منظمين وجمهور. غالبية الحشود والجماهير لديهم أهدافٌ واضحةٌ وسلميةٌ يسعون لتحقيقها بأكبر قدرٍ من المتعة وأقلّ قدر من المشاكل والمنغصات، بالتالي هم ليسوا خُصوماً للمنظمين، بل يمكن أن يكونوا عوناً كبيرا لهم في حال كان عمل المنظمين الأساسي هو تسهيل حركة الحشود ومساعدتهم في تحقيق الهدف الذي جاؤوا من أجله، بينما قد يتحولون إلى خصومٍ لا يتورعون عن اللجوء للعنف في حال سعي المنظمين للتحكّم بهم وتقييد حركتهم (دون تواصلٍ فعّالٍ وشفافٍ)؛ كون ذلك سيتم إدراكه من قبل الجمهور على أنه يعيق تحقيقهم لأهدافهم أو ينظر إليه كظلمٍ غير مبرّرٍ، مما يجعلهم في حلٍّ من اتباع التعليمات والقوانين.

هذه النقلة في النظرة نحو الحشود والتعامل معهم قامت على دراساتٍ أسقطت خرافة "الهلع"، إضافةً إلى إثبات أن الناس يلتزمون بالقواعد ويساعدون حتى الغرباء في أوقات الطوارئ [66]ما حدا بأدلة الطوارئ الحديثة[67] أن تعدّ الجمهور المتواجد في ساحة الكارثة خط الاستجابة الأوّل، وبالتالي يجب تمكينهم وتسهيل عملهم مثل توفير المعلومات لهم بشفافيةٍ، بدلاً من الممارسة القديمة التي تسعى لحجب المعلومات عن الناس خوفاً من فزعهم، وبالتالي إيذاء أنفسهم والآخرين.

تخيّل نفسك عزيزي القارئ في محطةّ حافلاتٍ أو مطار، حيث تلاحظ تأخر الرحلات وتكدّس الناس من حولك، ومضي الوقت دون أي تفسيرٍ من قبل الإدارة والموظفين لسبب التأخر، أو تزويدك بوقتٍ متوقعٍ لإصلاح الخلل، لا شكّ أن هذا الوضع يزيد التوتّر لديك ويغذي غضبك تجاه الموظفين ويزيد من احتمالية إقدامك على سلوكٍ عدوانيٍّ.

3- تجنّب العقاب الجماعي

بناءً على ما نعرف عن أهمية الهوية الاجتماعية في سلوك الحشود فإنّ العقاب الجماعي هو أسوأ ما يمكن للمنظمين فعله تجاه الحشود وأسرع طريقةٍ لتحويلهم لحشدٍ عنيفٍ.

يميل المنظمون أحياناً إلى معاقبة الحشد كاملاً بسبب مخالفاتٍ قام بها بعض الأفراد، إمّا بسبب صعوبة التعرّف على المشاغبين، أو لسهولة العقاب الجماعي، أو اعتقاد المنظّم أن استخدام هذا الأسلوب سيعزز سلطته ويقود إلى انصياع أفراد الحشد، إلا أن سلوك هذا الطريق غالباً ما يجلب نتائج عكسيةً، حيث يعمل على توحيد الحشد ضدّ المنظمين ورفع مكانة المشاغبين من كونهم هامشيين إلى دفعهم لمركز قيادة الحشد.

من السهل على مراقبٍ خارجيٍّ لأي جماعةٍ أو حشدٍ أن يفترض أنهم متشابهون ومنسجمون؛ كونه يركّز على القواسم المشتركة بينهم فقط دون الاختلافات، بينما في الحقيقة أن الحشود -التي تعرّف بأنها جماعاتٌ مؤقّتةٌ- غالبا تتكون من أشخاصٍ مختلفين في ثقافاتهم وقيمهم، فمنهم من يحترم القوانين، ومنهم من يتمرّد عليها، كما يوجد بينهم المسالم والعدواني، ويحصل أحياناً بينهم خلافٌ فيما يخصّ القرارات الجماعية (مثلما نراه يتكرر كثيراً داخل حملة الحجاج).

من المفيد جداً للمنظّم أن يدرك هذه التمايزات ويُحسن استغلالها، أو على الأقل ألّا يخسر جزءاً مهماً من الحشد باستعدائه، حيث وُجد أنّ العقاب الجماعي يعدّ من أقوى الممارسات التي توحّد الحشود ضد المنظمين لسببين رئيسيين، أولا: كونه يعامل أفراد الحشد كجماعةٍ واحدةٍ حتى ولو لم يرَوا أنفسهم كذلك، وبالتالي يبدؤون بالتصرف كجماعةٍ فعلاً نتيجةً لهذه المعاملة. ثانيا: يخلق العقاب الجماعي شعوراً بالظلم عند أغلبية أفراد الحشد، ومشاعر عدائيةً تجاه المنظمين أو قوات الأمن، وربما يبرّر هذا الشعور عدم احترام الأنظمة كونهم أصبحوا يرونها "ظالمةً". إضافةً إلى هذه التفاعلات الخطيرة التي تواجه المنظمين نتيجة استخدام العقاب الجماعي، فإنهم ربما يواجهون

مشكلةً إضافيةً، وهي تحوّل المشاغبين من كونهم أقليةً هامشيةً إلى قادةٍ يدافعون عن الحشد وقدواتٍ لباقي أفراده، بينما وُجد أنه في حال تجنّب العقاب الجماعي، واستخدام أسلوب تواصلٍ شفافٍ وقائمٍ على الثقة مع الحشد فإن العكس هو ما يحدث، حيث يقوم الجمهور بنبذ مثيري الشغب، وأحيانا الأخذ على أيديهم؛ كونهم يسيئون للجميع، ولا يمثلون القيم التي يؤمن بها الباقون. المزيد من التفاصيل تمّت مناقشتها في الفصل السابق عن حشود الملاعب.

4- افهم جمهورك (تعرف على ثقافة الحشد، أهدافه ومعاييره الاجتماعية)

من المهم جدّا للمنظمين أن يعرفوا الجماهير والحشود التي يتعاملون معها، فالفهم أساس القدرة على التنبؤ، ومن لا يستطيع التنبؤ بسلوك الجمهور فبالتأكيد ستكون فعاليته بالتعامل معهم منخفضة.

يجب على المنظّم التعرف على ثقافة الجمهور، فالحشود المصطفّة لدخول باخرةٍ سياحيةٍ مختلفةٌ عن الحشود التي تنتظر دخول مباراة كرة قدمٍ، ولا أقصد هنا أنّ الأفراد في بعض الحشود أكثر رقياً وتحضرا من الآخرين، فهذا ينافي ما قام عليه هذا الكتاب وهو وجود آليات وعوامل محددة تقود للعنف أو الكارثة، بغض النظر عن الجنسية والعرق والمستوى التعليمي والاقتصادي للأفراد.

إذاً، ماذا نقصد بثقافة الجمهور والحشد؟ المقصود هو التعرّف على ما يحبون ويكرهون، والرموز والمصطلحات المتداولة بينهم، وبوجه خاص التعرّف على أهداف هذه الحشود والقواعد الموجّهة لسلوكهم (المعايير الاجتماعية) التي قد تختلف جذرياً من حشدٍ لآخر، فحشود الحج تقودها أهدافٌ روحانيةٌ، بينما حشود الملاعب والحفلات تسعى نحو الترفيه، والمحتجّون أهدافهم سياسيةٌ، ولا يتصوّر أنّ القواعد التي تحكم سلوكهم (ما هو مقبولٌ ومرفوضٌ) هي ذاتها في جميع تلك الحشود.

إضافة إلى كون فهمنا لثقافة الحشد يمكّننا من توقّعٍ أفضل لسلوكهم، إلّا أن هذا الفهم، وبالذات للمعايير الاجتماعية الخاصّة بالحشد، مفيدٌ على وجه الخصوص في تجّنب تحول الحشد إلى عنيفٍ. كما ذكرنا في التوصية السابقة، من المهم أن يسعى المنظّم في تيسير حركة الحشود وتحقيقها لأهدافها -عدم إعاقتها على الأقلّ- وهذا يتطلّب معرفة تلك الأهداف بشكلٍ جيّدٍ من قبل المنظمين، وأخذها بالحسبان، دون الاكتفاء بالأولويات الأمنية والتنظيمية، وأحد الأمثلة المميزة على ذلك في الحج هو التوجه الحديث لتقدير المنظمين

للاختلافات المذهبية والفقهية للحجاج، والسماح لهم بنظام جدولةٍ يتيح لهم بالنفرة من مزدلفة بأوقاتٍ مختلفةٍ.

أمّا فيما يخصّ معرفة المعايير الاجتماعية، فذلك مفيدٌ في تجنّب عنف الحشود؛ كونه يشكّل نقطةً حرجةً في بعض المواقف التي تشعل عنف الحشود بغير ضرورةٍ، حين يفسّر المنظمون بعض تصرّفات الحشد أنها خارجةٌ عن المألوف وغير مقبولة، وبالتالي يقومون بقمعها بهدف "فرض النظام"، إلّا أن ذلك غالباً لا يسير بشكلٍ جيدٍ، حيث يفسّر على كونه معاملةً غير عادلةٍ، ويقود لتفاعلاتٍ خطرةٍ داخل الحشد (النقطة السابقة: العقاب الجماعي).

يحاول المنظمون استباق الأحداث واكتشاف المشاكل في وقتٍ مبكّرٍ؛ لتسهيل التعامل معها ومنعها من التفاقم، إلا أنه أحياناً يحدث خطأ في تفسير بعض الأحداث على أنها بداية مشكلةٍ بسبب سوء فهمٍ من المنظمين للمعايير الاجتماعية الخاصة بالجمهور، حيث يُنظر إلى سلوكٍ محددٍ (مثل محاولة الدخول لمنطقةٍ معينةٍ أو الرقص والغناء بصوتٍ عالٍ في مكانٍ عامٍ) على أنه انتهاكٌ متعمّدٌ للقانون، وبالتالي يتوقع أن الشخص الذي قام بهذا السلوك سيقدم على انتهاك قوانين أخرى، بينما قد يكون السبب هو أنّ المشجعين في غمرة الحماس لازلت نفسياتهم في جو المباراة على الرغم من خروجهم من الملعب، فقاموا -غالباً عن غير وعيٍ- بسحب معايير الملعب -حيث الرقص والغناء بصوت عالٍ أمرٌ مقبولٌ- إلى خارج الملعب في الأماكن العامّة حيث هذه التصرّفات غير مقبولةٍ. فبدلاً من محاولة قمع هذا السلوك بالقوة ومحاولة السيطرة على هذا الحشد "المنفلت" ومعاقبة أفراده، ربما يفيد مجرد التواصل مع الحشد وتذكيرهم بقواعد السلوك العامة، والأهم من ذلك إدراك المنظم أنه سلوكٌ غير خطيرٍ ولا يستدعي إعلان الطوارئ.

كيف تنجو من حوادث الحشود؟

طريقة التفكير التي تخدمنا في الحياة اليومية (مثل المقارنة الاجتماعية والتفاؤل غير الواقعي) قد توردنا المهالك في أوقات الطوارئ، إن لم ننتبه لها

ونعوّد أنفسنا على ملاحظة علامات الخطر، بحيث تكون بوابةً للتفكير والتصرّف بطريقةٍ مختلفة تنقذ حياتنا.

”مَن خاف سَلِم“

كنت في مكتبةٍ شهيرةٍ في الرياض مع زوجتي، حينما انطلق صوت صافرة الإنذار، فتسمّرت في مكاني، اسْتغرَبت زوجتي، فأخبرتها بأنه يجب علينا المغادرة ولكن لم تعجبها الفكرة، أثناء حديثنا مرّ أحد الموظفين وأخبرنا أن ”لا نقلق“ وأنه أمرٌ عاديٌّ، فسألته عن كون هذا الإنذار مجدولاً مسبقا ضمن تدريبٍ على الإخلاء؟ فقال لا وأكمل طريقه. أثناء ترددي بالخروج من المبنى انطفأت الصافرة فأكملنا التسوق، لكن الصافرة عادت للانطلاق مرة ثانيةً وثالثةً خلال دقائقٍ معدودةٍ. على الرغم من عدم خروجي من المبنى حينها، كنت متيقظاً وقريباً من المخرج، ولاحظت أن الموظفين والمتسوقين كانوا غير مبالين تماماً بصفارات الإنذار.

هذا السلوك شائعٌ للأسف، وهو ما يمكن أن نطلق عليه ”السلوك الطبيعي“، حيث يميل الناس في مثل هذه المواقف إلى المقارنة الاجتماعية بتقدير الخطر أو ما يجب فعله بناءً على من حولهم (خاصةً إذا كان موظفاً رسمياً)، والميل إلى التفاؤل غير الواقعي (إن شاء الله لا يوجد شيء مقلق). هذه الصورة مناقضةٌ تماماً لما في أذهاننا عن ظاهرة الهلع، حيث يتوقع أن الناس عندما يواجهون خطراً محتملاً فإنهم يبالغون بالخوف، ما يدفعهم إلى إيذاء أنفسهم والآخرين، إلا أن الدراسات وثّقت أن ما يقتل الناس فعلياً في مثل هذه الحوادث هو أنهم (لا يخافون كفايةً) وليس كونهم يبالغون بالخوف، وتوضح مقارنة عمليات إخلاء برجي التجارة العالمي ما بين تفجير عام 1993 وتفجير 2001 أن التفجير الأول ساهم في تحسين عمليات الإخلاء وتسريعها في الحادثة الثانية، حيث أظهرت البيانات أن الإخلاء الأول أظهر تباطؤاً كبيراً في الخروج من المباني، وهو ما كان سيسبب خسائر كبيرةً في الأرواح لو أنه تكرّر في تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر [68].

وهنالك تجربةٌ شهيرةٌ[69] توضح أن وجود الآخرين يخفض الشعور بالخطر عبر الاعتماد على الآخرين في ما يجب فعله (المقارنة الاجتماعية وتشتت المسؤولية)، حيث وضع الأفراد في غرفة انتظارٍ ينبعث فيها دخانٌ من تحت الباب، وعندما كان الأفراد لوحدهم كانوا يسارعون بالخروج، ولكنهم انتظروا طويلاً عندما كان معهم آخرون (ممثلون) جالسون دون مبالاةٍ بالدخان.

البقاء مع الجماعة

إحدى النتائج التي توصّل لها د.هاني النابلسي في دراساته القيمة عن حشود الحج أن الانتماء الاجتماعي يخفّف من الإحساس بالخطر، وهو أمرٌ قد يكون إيجابياً، إلّا أنه قد يقود لعواقب خطيرةٍ على الفرد والحشد بشكلٍ عامٍّ. يوصي خبراء الحشود بأن خطر الحوادث يزداد عندما تتخطى كثافة الحشد 4-6 أشخاصٍ بالمتر المربّع، إلّا أن تلك الكثافة كثيرا ما يتمّ تجاوزها في الفعاليات الكبيرة، فصحن المطاف بالحرم على سبيل المثال -وخاصةً قرب الكعبة- يشهد غالباً كثافةً تتخطى تلك التوصيات (هنالك إفادات بوصول الكثافة إلى عشرة أشخاصٍ بالمتر المربّع).

الآن تخيّل أنك ضمن جمهور فعاليةٍ كبيرةٍ كنت تتوق لحضورها منذ وقت طويلٍ، مثل حفلةٍ أو مباراةٍ أو الحج، من الطبيعي أن تشعر بالسعادة والانتماء للحشد المحيط بك والتفاؤل بأن الأمور ستسير كما يرام، ويكون تركيزك منصبّاً على التجربة التي تعيشها وحفظ أكبر قدرٍ من الذكريات الإيجابية، إلا أن هذا الاطمئنان الناتج عن إحساس الشخص بأنه ضمن سِربه قد يعمينا عن الخطر المحدق بنا، كالانتباه لكون الازدحام وصل إلى مستوياتٍ خطرةٍ، وبالتالي وجوب التوقف أو التوجه لمكانٍ آخر أقلّ ازدحاماً.

للانتماء الاجتماعي مكانةٌ مركزيةٌ في حياة الإنسان، وبشكلٍ خاصٍّ في مجتمعاتنا العربية، وجزءٌ كبيرٌ من اهتمامي وتخصصي يركز على فهم الأدوار الإيجابية لهذا الانتماء في حياتنا، ولذلك نميل إلى البقاء مع "الجماعة"، ونتوتّر إن افترقنا عنهم، فنسعى للمّ الشمل معهم، وذلك لا غبار عليه في الظروف الطبيعية، ولكنه قد يكون خطأً فادحاً أثناء الوجود ضمن حشدٍ وخاصةً أثناء الطوارئ، حيث يدفع ذلك بعض الأفراد للتحرك عكس اتجاه حركة الحشد وناحية الخطر، من أجل البحث عن أفراد مجموعته لمساعدتهم، مما قد يكون له عواقب وخيمةٌ في حين أن الآخرين الذين نسعى لمساعدتهم غالباً غادروا موقع الخطر وتمت مساعدتهم.

الفصل السادس

الخلاصة

هذا الكتاب لا يسعى لنقض نظرية لوبون في سلوك الحشود بقدر ما يسعى لتقديم تحديثٍ مستحقٍّ لتطور فهمنا لسلوك الحشود، بعد أكثر من 125 سنةً من تراكم الدراسات والنظريات العلمية في هذا المجال، منذ أن ألّف لوبون كتابه في القرن التاسع عشر. انطلق لوبون من ملاحظةٍ عبقريةٍ وهي التغيّر الجذري لسلوك الفرد عندما ينضمّ إلى حشدٍ فيبدو وكأنه نفض عنه آثار سنين طويلةٍ من التربية والتعليم، فأصبح لا يبالي بالقيم واحترام القانون، وكيف يقع الأتباع تحت تأثيرٍ غير عقلاني يحوّلهم أداةً طيّعةً في يد القائد الملهم. استعان لوبون بالمعارف والعلوم النفسية والاجتماعية في عصره -التي كانت بدائية- لتفسير تلك الظاهرة، مثل التنويم المغناطيسي، والعقل الجمعي، وسار على سنّة معاصريه الذين شاع بينهم استخدام تشبيهاتٍ مستعارةٍ من الظواهر الطبيعية لوصف الظواهر الإنسانية والاجتماعية، فشبّه انتشار السلوك ضمن الحشد بانتشار الميكروبات المسبّبة للعدوى. بالإضافة إلى بعض التحيّزات التي شابت تحليل لوبون لظاهرة الحشود؛ بسبب تركيزه على مشكلة الثورات والاحتجاجات وأحداث الشغب التي عصفت بأوروبا في فترة ما بعد الثورة الفرنسية، ما جعل بعض الأوصاف والنتائج التي استخلصها لا تصحّ على الحشود بشكلٍ عامٍّ، مثل دعواه أن الحشود عنيفةٌ بطبعها، بينما في حياتنا المدنية الآن نعايش العديد من أنواع الحشود (في الملعب، والمسارح والحج) دون أن إشكالياتٍ، إلّا ما ندر. إضافة إلى احتواء تحليلاته على بعض الأفكار السائدة في عصره التي تجاوزها الزمن ولا يجوز ترديدها، كادّعاء تفوّق عرقٍ على آخر.

لا أكتفي هنا بنقد نظرية لوبون وبيان الإشكاليات في التحليل الذي قدّمه، وإنما أقدّم أيضاً نظريةً بديلةً (الهويّة الاجتماعية) التي تمكّننا من فهمٍ أفضل لسلوك الحشود، بتقديم تفسيراتٍ تفصيليةٍ عن التغيرات النفسية الاجتماعية التي يمرّ بها الفرد أثناء انضمامه للحشد، حيث تشير إلى كون هذا التغيّر الجذري في السلوك ناتجاً عن تحولٍ في طريقة تفكير الفرد في نفسه والآخرين، حيث

ينتقل إدراكه من التركيز على كونه فرداً مستقلاً إلى كونه عضواً في جماعةٍ، فيتبنى أهداف تلك الجماعة ويسعى لتحقيقها، كما تتحوّل القيود على سلوكه من كونها معايير اجتماعيةً (ما يجب عليك فعله أو تركه) طبقاً للمجتمع العام، فيصبح المقبول عنده هو ما تقبل به الجماعة ويرفض ما ترفضه. هذا التفسير يمكّننا من فهم التغيّر في السلوك أكثر من مفاهيم التنويم المغناطيسي والعدوى وذوبان الهوية التي لا تفسر سلوك الحشود في الواقع بشكلٍ جيّدٍ، فعلى سبيل المثال، تمكّننا الهوية الاجتماعية من فهم انصياع الأتباع غير العقلاني للقائد على كونهم ينظرون إليه ممثلاً عن هوية الجماعة ومدافعاً عنها، وليس بسبب امتلاكه قدرة التنويم المغناطيسي، بدليل عجزه عن إقناع الأتباع من غير جماعته (مثلاً، عجز ترمب عن التأثير على الديموقراطيين). كما أحاول أيضاً استعراض أمثلةٍ متنوعةٍ من الحشود (جماهير الرياضة، المظاهرات، الحج) مع إيضاح فهم جديدٍ لتلك الظواهر وفق نظرية الهوية الاجتماعية، يوضّح أن عنف الحشود ليس أصيلاً في طبيعتها، وإنما ناتجٌ عن عوامل خارجيةٍ (مثل ضعف التواصل والعقاب الجماعي) يمكن التحكّم بها واجتناب حوادث الحشود عبر تبني سياساتٍ أكثر تفهماً لسلوك الحشود.

إضافة إلى تركيزي على سلوك الحشود، أجدني مضطرّاً لمناقشة ونقض تصوّرٍ فاسد حول الطبيعة البشرية، يبدو أنه يجد له دعماً في أطروحات لوبون ويغذّيها. يقضي هذا التصوّر بأن الأصل في الإنسان هو العدوان والتنافس وبشكلٍ خاصٍّ تجاه الغرباء وأثناء الأزمات والكوارث، إلّا أنّه وعند التحقيق نجد أن هذا التصور يلقى دعمه الأكبر في الإعلام والفنّ الذي يميل للإثارة ويسقط ضحية "تحيّز الانتباه السلبي" ويجعل الناس يتناقلون الأخبار السيئة أكثر من الأخبار الجيّدة؛ كون الجيّد هو "الطبيعي" والأساس، إلّا أن تزايد قوة وسائل الإعلام على مدى أجيالٍ أنسانا ذلك الأساس الجيّد، وساهم في تشويه إدراكنا لواقع الطبيعة البشرية وما يحصل "فعلياً" في المجتمعات الحية خارج استوديوهات الأفلام والأخبار. دعماً لهذا الواقع الإيجابي بكون البشر يميلون غالبا للتعاون ودعم بعضهم البعض (حتى الغرباء)، أورد العديد من الدراسات التي وثّقت حالات التعاون والتعاضد بين الغرباء أثناء الأزمات، من حوادث التفجيرات في أوروبا، إلى الزلازل في أمريكا الجنوبية، وانتهاء بمجتمعات اللاجئين في الدول العربية الذين أظهروا مستوى من التعاضد أعلى من المجتمعات "الطبيعية" التي لا تعاني أزماتٍ. لا يعني ذلك عدم وجود مستغلين وعدوانيين وتنافسيين ضمن المجتمعات، وإنما القصد أن الغالبية تميل للتعاون خاصّةً وقت الأزمات، ويحصل هذا لا لكونهم ملائكيين أو أرقى أخلاقاً أو أكثر سماحةً من الباقين، ولكن لأنّ التعاون وقت الأزمات هو وسيلةٌ فعّالةٌ للبقاء وزيادة الكفاءة والإنتاجية، وهو ما يبدو أنه ساهم وبشكلٍ أساسيٍّ في ازدهار جنسنا البشري منذ الأزل.

ملاحظات منهجية

حفاظاً على سلاسة الطرح وعدم إثارة الملل، فضّلت أن أترك بعض الملاحظات التفصيلية والمنهجية إلى الفصل الأخير من الكتاب؛ حتى أتجنب تشتيت انتباه القارئ، إلا أنها تظلّ ضروريةً للإجابة على تساؤلاتٍ مهمّةٍ، أتوقع أن تقدح ذهن القارئ الجاد والناقد لسطوري، وتبيّن بعضاً من أوجه قصوري، وهنا محاولة لذلك.

على الرغم من وجود «علم نفس الحشود» في عنوان الكتاب، إلا أن ما ذكر فيه ليس استعراضاً لهذا التخصّص المهم، ولا يعدّ الكتاب مرجعاً عامّاً فيه، وإنما يناقش نظريةً واحدةً في أحد جوانب هذا التخصص. هذا الكتاب ليس مصدراً أكاديمياً، ولا يجب أن يستشهد به الباحثون والممارسون، وإنمّا هو فهمٌ مبسّطٌ وموجهٌ نحو مجموعةٍ من الدراسات التي يجب الرجوع لها وغيرها بشكلٍ مباشرٍ، والاطلاع على تفاصيلها، وكيف تمّ الوصل لنتائجها. هذا الكتاب لا يتبع طريقة الكتابة الأكاديمية، ولا ضبطها المحكّم المعتاد؛ بسبب اختلاف هدفه عن كتابة المقالات العلمية الموجهة لزملاء المهنة والمختصين. مع ذلك، سعيت لتقليل تحيّزاتي الشخصية وكشف نقاطي العمياء عبر استشارة أربعةٍ من الزملاء الأكاديميين ممن أثق بجودة معاييرهم، الذين قدموا ملاحظاتٍ ومقترحاتٍ مهمةً بخصوص المحتوى العلمي والصياغة وترتيب الأفكار، فلهم كلّ الشكر. ومع ذلك أتوقّع أن توجد عدّة ملاحظاتٍ وأخطاءٍ وأوجه نقصٍ في هذا الكتاب، وأتمنى أن تصلني حتى أتجنبها في الطبعات القادمة.

قد يلاحظ القارئ كثرة الاستشهادات لمجموعةٍ معينةٍ من الباحثين في هذا المجال، ولا يعني ذلك أنهم الوحيدون أو الأفضل، وإنما أوردت هذه الأعمال كأمثلةٍ، ولأني مطّلع عليها بحكم عملي واحتكاكي بهم أثناء وجودي في معمل أبحاث دراسة الحشود والهوية الاجتماعية بجامعة ساسكس البريطانية. نظرية الهوية الاجتماعية هي إحدى النظريات المفسّرة لسلوك الحشود، وهي على الرغم من فائدتها، إلا أنها لا يتوقع أنها تفسّر كل الظواهر السلوكية المتعلقة بالحشود.

فصل «في الطبيعة البشرية» -وكما أوضحت مسبقا- يناقش موضوعاً مهماً وعميقاً، يحتاج إفراد كتابٍ مخصصٍ لإعطائه حقه، وما ذكرته في هذا الفصل ما

هو إلّا الحد الأدنى لإثبات نقطة «الأصل في البشر هو التعاون لا التنافس» وهي ذات علاقةٍ وثيقةٍ بالكتاب.

فيما يخصّ طريقة الاستشهاد، لم ألتزم بالطريقة العلمية لتوثيق المراجع، حيث لم أتبع أيّاً من طرق التوثيق المعروفة (MLA, APA, Chicago)، وإنما قمت بالتوثيق وفقاً للطريقة التي أحسبها أسهل للقارئ، فتجنبت ذكر اسم المؤلف وسنة النشر في المتن، مستخدماً الهامش لتوضيح تلك المعلومات مع ذكر المصدر وتفاصيله كاملةً في فهرس المراجع في آخر الكتاب.

نَسجتُ عنوان كتابي على منوال العنوان الأشهر عربيا «سيكلوجية الجماهير» على الرغم من كون هذا العنوان ليس دقيقاً ولا متفقاً عليه. عنوان الكتاب الأصلي "Psychologie des Foules" يترجم إلى الإنجليزية "Psychology of Crowds" وهو ما أترجمه شخصياً إلى «علم نفس الحشود». وعند تتبّع الترجمات العربية لكتاب لوبون ، نجد أن المترجمين تصرّفوا بالعنوان على أوجهٍ عدةٍ أنتجت عناوين مختلفةً مثل ترجمة أحمد فتحي باشا زغلول «روح الاجتماع»، الذي ترجم الكتاب عام 1921، وترجمة عادل زعيتر للعنوان «روح الجماعات»، إلّا أن الترجمة الأشهر حاليا «سيكلوجية الجماهير» هي التي اتّفق عليها مجموعة من المترجمين، مثل هاشم صالح، وعبدالله محمد، وإكرام صغيري، وأحمد حايك، ومحمد مصطفى.

اختلاف العناوين ربما تكون له دلالةٌ تحدّد نطاق الظاهرة التي يتناولها الكتاب، فذهن القارئ عندما يسمع كلمة «جماهير» لربما ينصرف إلى أفرادٍ في بيوتهم يستمعون لخطاب قائدٍ ملهمٍ، بينما عند سماع كلمة «جماعةٍ» قد ينصرف الذهن إلى مجموعةٍ من الأفراد تربطهم علاقاتٌ اجتماعيةٌ قويةٌ ومصالح متداخلةٌ، بينما عنوان الكتاب بلغته الأصلية «علم نفس الحشود» المقصود به «الحشد» وهو يصف تحديداً جماعةً مؤقتةً أعضاؤها متفاعلون بشكلٍ قد يكون مختلفاً عن سلوك أعضاء الجماعات المستقرّة (مثل القبائل أو الطائفة)، وأيضاً قد يكون مختلفاً عن سلوك أفراد جمهورٍ عامٍّ مختلف التوجهات، يتلقون رسالةً واحدةً ولكن بشكلٍ منفصلٍ عن بعضهم (مثل المشاهدين في منازلهم).

قائمة بالمراجع

- كتاب ”سيكلوجية الجماهير“، ترجمة هاشم صالح ونشر دار الساقي، الطبعة الخامسة 2013.
- كتاب «علم النفس الاجتماعي» للدكتور فلاح العنزي، الطبعة الثالثة 2001.

- Alfadhli, K. & Drury, J. (2020). On the borders: Research with refugees of conflict. In Y. Acar, S. Moss & O. Uluğ (Eds). Researching Peace, Conflict, and Power in the Field: Methodological Challenges and Opportunities. Springer International Publishing.
- Alfadhli, K., Cakal, H., & Drury, J. (2019). The role of emergent shared identity in psychosocial support among refugees of conflict in developing countries. International Review of Social Psychology, 32(1), 2.
- Alnabulsi, H., & Drury, J. (2014). Social identification moderates the effect of crowd density on safety at the Hajj. Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America, 111.
- Alnabulsi, H., Drury, J., & Templeton, A. (2018). Predicting collective behaviour at the Hajj: place, space and the process of cooperation.

Philosophical Transactions of the Royal Society B: Biological Sciences, .373(1753), 20170240

- Alnabulsi, H., & Drury, J. (2014). Social identification moderates the effect of crowd density on safety at the Hajj. Proceedings of the National .-Academy of Sciences, 111(25), 90919096

- APA. (2008). Hypnosis today—Looking beyond the media portrayal. .Https://Www.Apa.Org

- Ball, R., & Drury, J. (2012). Representing the riots: The (mis) use of .statistics to sustain ideological explanation. Radical Statistics, 106, 4–21

- .Bloom, P. (2014). Just babies: The origins of good and evil. Crown

- Bregman, R. (2020, May 9). The real Lord of the Flies: What happened .when six boys were shipwrecked for 15 months. The Guardian

- Bregman, R. (2020). Humankind: A hopeful history. Bloomsbury .Publishing

- Clingingsmith, D., Khwaja, A. I., & Kremer, M. (2009). Estimating the impact of the Hajj: religion and tolerance in Islam’s global gathering. .The Quarterly Journal of Economics, 124(3), 1133-1170

- Drury, J. Crowds and Identities: John Drury’s Research Group : University of Sussex. http://www.sussex.ac.uk/psychology/crowdsidentities

- Drury, J., Brown, R., González, R., & Miranda, D. (2016). Emergent social identity and observing social support predict social support provided by survivors in a disaster: Solidarity in the 2010 Chile .earthquake. European Journal of Social Psychology, 46(2), 209-223
- Drury, J. (2016, November 16). Explaining involuntary influence: .Beyond contagion – Urban Transformations
- Drury, J., & Stott, C. (Eds.). (2015). Crowds in the 21st century: .perspectives from contemporary social science. Routledge
- Drury, J., Novelli, D., & Stott, C. (2013). Representing crowd behaviour in emergency planning guidance: 'Mass panic' or collective resilience? .Resilience: International Policies, Practices and Discourses, 1, 18–37
- Drury, P. J. (2011, January 23). the crowd: Why do 'stampedes' happen .at crowd events? The Crowd
- Drury, J., Cocking, C., & Reicher, S. (2009). The nature of collective resilience: Survivor reactions to the 2005 London bombings. .International Journal of Mass Emergencies & Disasters, 27(1), 66-95
- Grant, A. (2013). Give and take: A revolutionary approach to success. .Penguin
- Haslam, S., Reicher, S., & Van Bavel, J. (2019). Rethinking the nature of cruelty: The role of identity leadership in the Stanford Prison .Experiment. American Psychologist, 74
- Hillsborough Independent Panel. (2012). The Report of the Hillsborough

.Independent Panel (Vol. 581). The Stationery Office

- Hong Kong protesters make way for ambulance to pass through crowd. .((2019, June 18

- Jetten, J., Haslam, S. A., Cruwys, T., Greenaway, K. H., Haslam, C., & Steffens, N. K. (2017). Advancing the social identity approach to health and well-being: Progressing the social cure research agenda: Applying .the social cure. European Journal of Social Psychology, 47(7), 789–802

- Keith, T. (2020, September 11). Trump Says He Downplayed .Coronavirus Threat In U.S. To Avert Panic. NPR

- Latane, B., & Darley, J. M. (1968). Group inhibition of bystander intervention in emergencies. Journal of Personality and Social .Psychology, 10(3), 215

- NATO, N. A. T. O. (2008). Psychosocial care for populations affected by .major incidents, conflict, disasters and terrorism

- Ntontis, E., Drury, J., Amlôt, R., Rubin, G. J., Williams, R., & Saavedra, P. (2021). Collective resilience in the disaster recovery period: Emergent social identity and observed social support are associated with collective efficacy, well-being, and the provision of social support. British Journal .of Social Psychology, 60(3), 1075-1095

- Pandey, K., Stevenson, C., Shankar, S., Hopkins, N. P., & Reicher, S. D. (2014). Cold comfort at the Magh Mela: Social identity processes and .physical hardship. British Journal of Social Psychology, 53(4), 675-690

- Proulx, G., & Fahy, R. F. (2003). Evacuation of the World Trade Center: .What went right. CIB REPORT, 27–34

- Reicher, S., & Haslam, S. A. (2006). Rethinking the psychology of tyranny: The BBC prison study. British Journal of Social Psychology, .45(1), 1-40

- Reicher, S. D. (1984). The St. Pauls' riot: An explanation of the limits of crowd action in terms of a social identity model. European Journal of .Social Psychology, 14(1), 1–21

- Relations, U. of O. I. of G., & Sherif, M. (1961). Intergroup conflict and cooperation: The Robbers Cave experiment (Vol. 10). University Book .Exchange Norman, OK

- Sherif, M. (1961). Intergroup conflict and cooperation: The Robbers .Cave experiment (Vol. 10, pp. 150-198). Norman, OK

- Solnit, R. (2010). A paradise built in hell: The extraordinary .communities that arise in disaster. Penguin

- Stott, C., Adang, O., Livingstone, A., & Schreiber, M. (2008). Tackling football hooliganism: A quantitative study of public order, policing and .crowd psychology. Psychology, public policy, and law, 14(2), 115

- Tajfel, H., Billig, M. G., Bundy, R. P., & Flament, C. (1971). Social categorization and intergroup behaviour. European journal of social .psychology, 1(2), 149-178

- Tajfel, H. (1974). Social identity and intergroup behaviour. Social

.science information, 13(2), 65-93

- Thaler, R. H. (1988). Anomalies: The ultimatum game. Journal of .Economic Perspectives, 2(4), 195–206
- The Indian Express. (2021). As Texas suffers from water crisis, store .employee finds cash left by people who took packaged bottles
- Thompson, E. P. (1971). The Moral Economy of the English Crowd in .the Eighteenth Century. Past & Present, 50, 76–136
- Turner, J. C., & Reynolds, K. J. (2010). The story of social identity. In .Rediscovering Social Identity. Psychology Press, Taylor & Francis
- Washington Post. (2019, June 18). Hong Kong protesters make way for .ambulance to pass through crowd

1. في هذه التغريدة توصيةٌ لكتاب مختلف، ولكن فيها إشارة إلى أنه اطّلع على كتاب سيكلوجية الجماهير. ↑
2. في الصفحة 49 من كتاب سيكلوجية الجماهير، ترجمة هاشم صالح ونشر دار الساقي، الطبعة الخامسة 2013. ↑
3. في الفصل الأخير «ملاحظات منهجية» سأناقش اختلاف ترجمات وعناوين الكتاب. ↑
4. يجب التفريق بين مصطلح «العقل الجمعي» الذي توجد ضده اعتراضات كبيرة، ومصطلحات شبيهة لا بأس من استخدامها مثل «السلوك

الجمعي» أو «الثقافة الجمعية». ↑

5. المزيد في الفصل الرابع الذي يستعرض نماذج من سلوك الحشود ↑

6. المزيد في الفصل الرابع الذي يستعرض نماذج من سلوك الحشود ↑

7. المزيد في الفصل الثالث الذي يناقش النظرة للطبيعة البشرية ↑

8. كتاب «علم النفس الاجتماعي» للدكتور فلاح العنزي، الطبعة الثالثة 2001. ↑

9. تناقش في الفصل الثاني الذي يقدم نظرية بديلة. ↑

10. Drury, J., & Stott, C. (Eds.). (2015). Crowds in the 21st century: perspectives from contemporary social science. Routledge. ↑

11. APA. (2008). Hypnosis today—Looking beyond the media portrayal. ↑

12. إشارة إلى نشأة لوبون في عائلة ذات امتيازات حكومية ونسب بعيد للطبقة الحاكمة إضافة إلى سيرته التعليمية والمهنية البعيدة عن الطبقات الشعبية. هذا وقد صرح لوبون بموقف سلبي من الحركات الشعبية الثورية مثل كوميون باريس الذي سيطرت فيه مجموعات شعبية على العاصمة بعد هزيمة الجيش الفرنسي أمام بروسيا عام 1871م. ↑

13. يذكر لوبون أن الاكتشافات الكبرى للعلم والصناعة لم تكن لتتحقق في ظل الأنظمة الديموقراطية. ↑

14. من تصوير Nazim Fethi. ↑

15. الاستقراء هنا في مقابل الاستنباط، وكلاهما منهجٌ معتبرٌ، إلا أن الاستقراء يُبنى على دليل من الواقع. ↑

16. تناقش بالتفصيل في الفصل التالي (نظرية بديلة). ↑

17. Thompson, E. P. (1971) The moral economy of the English crowd in the eighteenth century, Past and Present, 50, 76–136. ↑

18. Ball, R., & Drury, J. (2012). Representing the riots: The (mis) use of statistics to sustain ideological explanation. Radical Statistics, 106, 4–21. ↑

19. Washington Post. (2019, June 18). Hong Kong protesters make way for ambulance to pass through crowd. ↑

20. The Indian Express. (2021). As Texas suffers from water crisis, store employee finds cash left by people who took packaged bottles. ↑

21. تراوحت هذه النظرة من توجّهٍ يرى أن هنالك استعداداً عند بعض الأفراد لارتكاب العنف والجرائم، إلى توجّهٍ يرى أنّ الوراثة هي العامل الأساس (المجرم يولد مجرماً) وحتّى أنّه يمكن التعرّف عليه من شكله (مثل نظرية لومبروزو). ↑

22. تم وضع عدد من الأطفال ذوي الخلفيات الاجتماعية المتشابهة وعزلهم في مخيمٍ صيفيٍ، حيث قاموا ببناء علاقاتٍ طيبةٍ ببعضهم، وعندما تم تقسيمهم إلى فريقين وتنظيم مجموعةٍ من المنافسات على عدة جوائز تصاعد العنف بين الجماعتين، واستمر حتى بعد انتهاء المنافسات، وتم تخفيض العدوانية لاحقاً عبر مجموعةٍ من التحديات المشتركة التي استلزمت تعاون الجميع. ↑

23. Sherif, M. (1961). Intergroup conflict and cooperation: The Robbers Cave experiment (Vol. 10, pp. 150-198). Norman, OK. ↑

24. يتم إبلاغ المشارك في التجربة بأنه تم وضعه ضمن جماعةٍ لها وصف اعتباطي (اسم غير معروف ولا قيمة له)، ويعطى كميةً من المال ويُطلب منه تقسيمها بين أفرادٍ من مجموعته ومجموعةٍ أخرى (دون أن يلتقي بأيٍّ منهم)، ووُجد أن الأفراد يميلون لتفضيل من ينتمون إلى جماعتهم (الخيالية) على حساب الآخرين. ↑

25. Tajfel, H., Billig, M. G., Bundy, R. P., & Flament, C. (1971). Social categorization and intergroup behaviour. European journal of social psychology, 1(2), 149-178. ↑

26. Tajfel, H. (1974). Social identity and intergroup behaviour. Social science information, 13(2), 65-93. ↑

27. Turner, J. C., & Reynolds, K. J. (2010). The story of social identity. In .Rediscovering Social Identity. Psychology Press, Taylor & Francis ↑

28. في مقدمة كتاب سيكلوجية الجماهير، ترجمة هاشم صالح ونشر دار الساقي. والاقتباس منقولٌ أيضاً في مقدمة هذا الكتاب. ↑

29. Reicher, S. D. (1984). The St. Pauls' riot: An explanation of the limits of crowd action in terms of a social identity model. European Journal .of Social Psychology, 14(1), 1–21 ↑

30. مزيد من التفاصيل في الفصل الخامس، الذي يتضمن نصائح عمليةً في إدارة الحشود. ↑

31. مزيد من التفاصيل في الفصل الرابع، الذي يتضمن نماذج لسلوك الحشود. ↑

32. مزيد من التفاصيل في الفصل الرابع، الذي يتضمن نماذج لسلوك الحشود. ↑

33. Jetten, J., Haslam, S. A., Cruwys, T., Greenaway, K. H., Haslam, C., & Steffens, N. K. (2017). Advancing the social identity approach to health and well-being: Progressing the social cure research agenda: Applying the social cure. European Journal of Social Psychology, .47(7), 789–802 ↑

34. Bloom, P. (2014). Just babies: The origins of good and evil. Crown.Chicago ↑

35. Thaler, R. H. (1988). Anomalies: The ultimatum game. Journal of .Economic Perspectives, 2(4), 195–206 ↑

36. في التجربة الأولى (The ultimatum game) يعطى فرد مبلغا من المال ويطلب منه اقتسامه مع شخص غريب بأي نسبة يحددها، بشرط موافقة الطرف الآخر وفي حال رفضه لا يحصل أي منها على شي، وهو ما حصل في حالة القسمة غير العادلة. في التجربة الثانية (The dictator game) الطرف الأول هو فقط من يمتلك تحديد نسبة العطاء أو عدمه، مع ذلك وجد الكثير ممن يعطون لغرباء دون أن يكونوا مضطرين لذلك. ↑

37. Grant, A. (2013). Give and take: A revolutionary approach to success. Penguin. ↑

38. Bregman, R. (2020). Humankind: A hopeful history. Bloomsbury Publishing. ↑

39. Solnit, R. (2010). A paradise built in hell: The extraordinary communities that arise in disaster. Penguin. ↑

40. Drury, J. Crowds and Identities: John Drury's Research Group : University of Sussex. ↑

41. Ntontis, E., Drury, J., Amlôt, R., Rubin, G. J., Williams, R., & Saavedra, P. (2021). Collective resilience in the disaster recovery period: Emergent social identity and observed social support are associated with collective efficacy, well-being, and the provision of social support. British Journal of Social Psychology, 60(3), 1075-1095. ↑

42. Drury, J., Brown, R., González, R., & Miranda, D. (2016). Emergent social identity and observing social support predict social support provided by survivors in a disaster: Solidarity in the 2010 Chile earthquake. European Journal of Social Psychology, 46(2), 209-223. ↑

43. Alfadhli, K., Cakal, H., & Drury, J. (2019). The role of emergent shared identity in psychosocial support among refugees of conflict in developing countries. International Review of Social Psychology, 32(1), 2. ↑

44. Drury, J., Cocking, C., & Reicher, S. (2009). The nature of collective resilience: Survivor reactions to the 2005 London bombings. International Journal of Mass Emergencies & Disasters, 27(1), 66-95. ↑

45. رواية لويليام غولدنغ الحاصل على جائزة نوبل، تم تحويلها إلى عدّة أفلامٍ وتم اختيارها ضمن أفضل مائة روايةٍ معاصرةٍ. ↑

46. Bregman, R. (2020, May 9). The real Lord of the Flies: What happened when six boys were shipwrecked for 15 months. The Guardian. ↑

47. Alfadhli, K. & Drury, J. (2020). On the borders: Research with refugees of conflict. In Y. Acar, S. Moss & O. Uluğ (Eds). Researching Peace, Conflict, and Power in the Field: Methodological Challenges and Opportunities. Springer International Publishing. ↑

48. الاستشراق يتضمن فكرةً جوهريةً تقوم على تقسيم العالم إلى شرق وغرب، مع أفضليةٍ غربيةٍ. الاستشراق الداخلي هو أن يتبنّى الشرقيون هذه الفكرة ويؤمنوا أنهم أقلّ من الآخرين ↑

49. من تصوير المؤلف في مخيم للاجئين على الحدود مع سوريا قرب مدينة المفرق الأردنية 23 فبراير 2016 ↑

50. لم يؤخذ بهذه التصريحات، حيث انتهجت الحكومة السعودية مبدأ الشفافية ما أسّس لثقة المواطنين وتعاونهم. ↑

51. Keith, T. (2020, September 11). Trump Says He Downplayed Coronavirus Threat In U.S. To Avert Panic. NPR. ↑

52. تناقش لاحقاً بالتفصيل ضمن حشود الحج في الفصل الرابع. ↑

53. Stott, C., Adang, O., Livingstone, A., & Schreiber, M. (2008). Tackling football hooliganism: A quantitative study of public order, policing and crowd psychology. Psychology, public policy, and law, 14(2), 115. ↑

54. Hillsborough Independent Panel. (2012). The Report of the Hillsborough Independent Panel (Vol. 581). The Stationery Office. ↑

55. Alnabulsi, H., & Drury, J. (2014). Social identification moderates the effect of crowd density on safety at the Hajj. Proceedings of the National Academy of Sciences, 111(25), 9091-9096. ↑

56. Alnabulsi, H., & Drury, J. (2014). Social identification moderates the effect of crowd density on safety at the Hajj. ↑

57. Pandey, K., Stevenson, C., Shankar, S., Hopkins, N. P., & Reicher, S. D. (2014). Cold comfort at the Magh Mela: Social identity processes and physical hardship. British Journal of Social Psychology, 53(4), 675-690. ↑

58. Clingingsmith, D., Khwaja, A. I., & Kremer, M. (2009). Estimating the impact of the Hajj: religion and tolerance in Islam›s global gathering. The Quarterly Journal of Economics, 124(3), 1133-1170. ↑

59. https://www.sussex.ac.uk/beyondcontagion موقع المشروع البحثي

↑

60. Drury, J. (2016, November 16). Explaining involuntary influence: Beyond contagion – Urban Transformations. ↑

61. هذه التجربة تصوّر الإنسان على أنه ريشةٌ في مهبّ ريح الظروف، وتنزع عنه الإرادة الفردية، وهو استنتاجٌ غير مدعومٍ؛ كون التجربة ظهر التلاعب بها وتمتّ الدعوة لحذفها من كتب علم النفس. ↑

62. Haslam, S., Reicher, S., & Van Bavel, J. (2019). Rethinking the nature of cruelty: The role of identity leadership in the Stanford Prison Experiment. American Psychologist, 74. ↑

63. Reicher, S., & Haslam, S. A. (2006). Rethinking the psychology of tyranny: The BBC prison study. British Journal of Social Psychology, 45(1), 1-40. ↑

64. Drury, J., Novelli, D., & Stott, C. (2013). Representing crowd behaviour in emergency planning guidance: ‘Mass panic’ or collective resilience? Resilience: International Policies, Practices and Discourses, 1, 18–37. ↑

65. Drury, P. J. (2011, January 23). The crowd: Why do ‘stampedes’ happen at crowd events? The Crowd. ↑

66. Drury, J., Cocking, C., & Reicher, S. (2009). The nature of collective resilience: Survivor reactions to the 2005 London bombings.

.International Journal of Mass Emergencies & Disasters, 27(1), 66-95
↑

NATO, N. A. T. O. (2008). Psychosocial care for populations affected .67
↑ .by major incidents, conflict, disasters and terrorism

Proulx, G., & Fahy, R. F. (2003). Evacuation of the World Trade .68
↑ .Center: What went right. CIB REPORT, 27–34

Latane, B., & Darley, J. M. (1968). Group inhibition of bystander .69
intervention in emergencies. Journal of Personality and Social
↑ .Psychology, 10(3), 215

Table of Contents

سيكلوجية الجماهير ما بعد لويون تحديثٌ مستحقٌّ في علم نفس الحشود
إهداء
شكر
مقدّمةٌ
الفصل الأول أين أخطأ لويون؟
(الفصل الثاني نظرية بديلة (الهوية الاجتماعية
الفصل الثالث في الطبيعة البشرية
الفصل الرابع نماذج من سلوك الحشود
الفصل الخامس تطبيقات عملية
الفصل السادس
ملاحظات منهجية
قائمة بالمراجع